رصاصة الرحمة

إنّ نوبات الحنين على الجسدِ أشدّ شراسة من أنياب الأسد

رصاصة الرحمة

لجسدٍ أنهكه الحنين

أ. حسام حمدان الرقب

أ. محمد حمدان الرقب

أ .فاتن حمدان الرقب

2019

الرقب، حسام حمدان
رصاصة الرحمة / حسام حمدان الرقب.- عمان : المؤلف،2019
( )ص.
ر.إ .: 5882/ 11/ 2019
الواصفات: / النصوص العربية / / النثر العربي/ / العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

جميع حقوق الطّبع والنّشر محفوظة.

لا يسمح بتصوير أو نسخ جزء أو كل هذا الكتاب بدون الموافقة الخطّية من المؤلف.

وكل مَن يُخالف ذلك، يعرّض نفسه للمسائلة القانونية

الطبعة الأولى، 2019

دار يــافــا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس 4778770 6 00962

ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن

E-mail: dar_yafa @yahoo.com

نبذة عن المؤلفين:

أ.محمد حمدان الرقب

- ماجستير اللغة العربيّة للناطقين بغيرها/ الجامعة الأردنيّة.
- بكالوريوس اللغة العربيّة وآدابها/ الجامعة الهاشميّة.
- مُعلّم لغة عربية في إحدى مدارس دولة قطر.
- أشرف على كتاب "واكتب إذا ما استطعت الكتابة" مجموعة قصصيّة لقاصّين أردنيين.
- أصدر كتابًا بعنوان:

أ.فاتن حمدان الرقب

- ماجستير اللغة العربيّة للناطقين بغيرها/ الجامعة الأردنيّة.
- بكالوريوس اللغة العربيّة وآدابها/ جامعة ناعور.
- مُعلّمة لغة عربية في إحدى مدارس دولة قطر.

أ.حسام حمدان الرقب

- بكالوريوس لغة عربيّة/ الجامعة الهاشميّة.

- دبلوم تدريبي متون الفقه المالكي والحنفي/ جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة.
- مُعلّم لغة عربيّة.
- أصدر كتابًا بعنوان : الليل والذّاكرة.
- أشرف على ثلاثة كُتب أدبيّة جماعيّة:

- كتاب: النداء الأخير "مجموعة رسائل أدبيّة لكُتّاب واعدين"
- كتاب حروف مُهاجرة "مجموعة رسائل أدبيّة لكُتّاب سوريين"
- كتاب: واكتب إذا ما استطعت الكتابة "مجموعة قصصيّة لقاصّين أردنيين"

- مؤسس ومشرف عام لمجلّة ورقيّة شهريّة "فِكر".
- مسؤول فريق شُعلة الأدب وفريق فِكر الأردني والسّوري.
- مُشرف عام للبرنامج التلفزيوني " مواهب ".
- مُشرف عام لثلاثة كُتب شهريّة:

- مجموعة قصصيّة. لقاصّين أردنيين.
- مجموعة رسائل أدبيّة لكُتّاب أردنيين.
- نصوص خواطر لكُتّاب أردنيين.

لا أعلم ما السرّ في طبيعة الحزن، مجرّد حزن واحد كفيل باستحضار أحزان تقسم ظهرك، وتفجّر في داخلك براكينَ وحممًا تجعلك في جحيم قاتل، تلمّ شمل أحزانك من كلّ حدبٍ وصوب، تؤرق مضجعك وتقتل شهيّتك تجاه كل شيء.

إهداء:

إلى المصابين في عقر قلوبهم..

من أين جئتِ؟ وكيف هي المصادفة التي جعلتني أتقاطع معك بطريقة سريَّة، وأنا الذي قد سَئِم الأصدقاء، وملَّ من تصرُّفاتهم؟ كثيرٌ من المصادفات أجمل من ألف موعد وألف لقاءٍ مرَتَّب مسبقًا، ولكنَّكِ كنتِ أجمل من كلِّ شيءٍ، وأقسى من كلِّ شيء، وأشرس من كلِّ شيء.

هل هناك من رابط بين حضورك القوي وبين تورُّطي بصداقة عَجْفاء؟! هل أنتِ مَن ستجعلني أستغني عن كلِّ شيء؛ لأَبْني معك مشروع وطنٍ هو أنتِ؟! أو مشروع حياة صغيرة تكفي كِلَيْنا كثيرًا من الوقت؟

لا أدري كيف أتيتِ؟ هل لأني اقتنعت بصداقة كاذبة؟ أم لأني قاوَمت ذلك القانون المستبدَّ؟ أم لأني لَم أدعْ مجالاً للآخرين لفَهمي، وأنا الذي لا يفهمني إلاَّ امرأةٌ واحدةٌ هي أنتِ؟

يا امرأة تُشبه وطنًا رحَل عنه أبناؤه، وبَقِي وحيدًا يصارع قانون الصداقة.

يا مدينةً استسلَمتْ لبطْش الأعداء، وأذْعَنت لهم.

كيف أتيتِ؟ ولماذا؟

هل لتنقذيني؟ أم لتجهزي عليّ؟ وأنا المنهار منذ زمن، منذ أن كنتُ أَتَرَقَّب حضورك في أحد مواسم الصيف المحرِقة، والتي اتَّحدت مع حرارتي الجارفة نحو الحبِّ، نحو الأمل، ونحو الحياة.

كنتُ أراكِ تبحثين عنِّي في كلِّ مكان: شرقًا وغربًا، ولكنَّك لَم تجعلي لقوَّتك عليك سيطرة، فذهبتِ تعتذرين كأقسى ما يكون الاعتذار، وأنا الذي قد جئتُ بقدمي صوبك لتفتحي عليّ رشاشات جنونك، وتتركيني جريحَ معركة لَم أكن طرفًا فيها، وأنا السيف والقلم.

وابتعدنا إذن بعد أن لَم يكن يَفْصلنا عن بعضنا بعضًا سوى لقاءٍ واحدٍ فيه شيءٌ كثيرٌ من زخارف الكلام، وأنا الذي لَم أُحسن المراوغة، ولَم أُحسن الكذب، أَلِهَذا الحدِّ تُريدينني كاذبًا؛ كي أظفرَ بجنونك، كي أستلقي على شواطئ غدرك، كي أموت كلَّ مرَّة؟

أكان حقًّا أني الْتقيت بكِ في دائرة ما مِن دوائر الزمن؟ أكان حقًّا أني تحدَّثت إليك أحاديث كثيرة، لا مجال فيها للمُراوغة أو الكذب؟

وأنتِ التي أغريتني كثيرًا واستفززتني؛ كي أقاوِمَ نار اللهب التي كانت مشتعلة في قريرتي، وأنتصر على ضَعفي، وأتقدَّم نحوك

بخُطًى شبه ثابتة؛ كي ألفح وجهك بنار حبِّي.

هل لأني صادقٌ لَم تقبليني؟ هل لأني كنت المبادر رفْضتني، وأنا الرجل الذي يعيش في مجتمع شرقي، وأنت المرأة التي غيَّرت قانون الشرق في كلِّ شيء؟

الشرق! وأنا الذي ابتدأتُ قصتي معك في الغرب، حينما كنتُ أتضوَّر جوعًا عاطفيًّا لأجدك وجبة تستحقُّ الأكل، ولكن ليس كأيِّ أكلٍ، بل كنتِ غايتي وهدفي.

ولكنَّكِ تركتني وحيدًا جائعًا بعدَ ذلك، كنتُ أرى في كلِّ وجْهٍ إياك أو وجْهَك، في كل بيتٍ بيتك، في كلِّ جنون جنونك.

لا أدري: هل أحتفل؛ لأني كسَرت حاجز خوفي؟ أم أحزن؛ لأني لَم أستطع ترجمة جُرْأتي إلى حياةٍ، إلى حُلم، إلى طريقة للعيْش؟

يا مدينةً عصيَّة على النسيان.

يا ريحانةً أرهقتني.

يا قلبًا نابضًا بالحبِّ والحروب.

ولكن أين أنا من الحب؟ وأين الحبُّ مني؟!

إنَّ الحبَّ ليصعِّر خدَّه لي كلَّما هَمَمْت بالاقتراب منه، كأنَّه على عداوة معي، وأنا الذي خلَّفت ورائي حَفنةً من أصدقاء من أجْلكِ

أنتِ.

لقصة حبي حكاية تعرفينها وتجهلينها، ولكنَّك كما بقيَّة الأصدقاء افترضت أنَّك لَم تعترفي بها.

هل جئتِ لكي تعيدي عليّ قصة حبِّنا، أو إن شئتِ قصة حبي لكِ؟ أم جئتِ لكي تبعديني عن آثار الماضي القاسي، وأنتِ الماضي الذي أرَّقني، وأنت الحاضر الذي لَم يُسعدني، وأنت المستقبل الذي لا أجد سبيلاً إليه؟

أيُّ تناقض هذا الذي تحملين؟ وأيُّ قسوة هاته التي معي بها تتعاملين؟

ألأنني سَئِمت قانون الصداقة، وجِئت أبحث عن حبٍّ بلا شروط، عن حبٍّ بلا مقابل، وإذا أنا أرجع لنقطة البَدء؟

منذ البَدء كنتُ أبحث عن وطنٍ يضمني، ويحنُّ عليّ ويرأَف بي، ويسمع مني ويستمع إليّ، وإذا أنا لا أجد سوى مدينةٍ محصَّنة كأشدِّ ما يكون التحصين.

ورفضْتِني إذن!

ولكن آثار الدَّمار بادية على جسدي وفي ذاكرتي، وأنا الذي لَم أُشْفَ من ماضيّ ومِن ذاكِرَتي.

ألَم تَحسبي حسابًا لذلك الأثر النفسي الذي خلقْتِه في كِيان رجلٍ لا يستطيع المراوغة؟

أم كانت دعوةً منك؛ لكي أجرب أسلحة أخرى؛ كي أحتلَّكِ؟

من أين أبدأ عذابنا؟ أو إن شِئْت من أين أبدأ عذابي معكِ؟ أمِن يوم أغريتِني؟ أم من لحظة عنفتني ورفضتني؟ أم من لحظة خنتني؟ وأنت التي أنهيتِ قصَّتكِ معي بكلمة، وأنا الذي بدأت قصتي معك حيث انتهيت مني، وتركتني أسيرًا لفُوَّهة روايتي، روايتي التي لَم تكتمل إلا بجرح عميق في داخلي.

جرحي ينزُّ وينزف بغزارة، ولَم يكن أحدٌ بجانبي إلاَّ أنتِ، ولكن لَم تشعري بأني أحتاجكِ كثيرًا الآن أكثر من أيِّ وقتٍ غيره.

رُبَّما شعرتِ بهذا، ولكنَّك انتقمْت لنفسكِ أو انتقمت لأني لستُ كما كنتِ تظنين أو تعتقدين.

رُبَّما لَم يكن بدٌّ من أنْ أقدِّم لك الشروحات حتى تحبِّيني، ولكنني حسبتك صديقةً لي.

إنَّ الأصدقاء لا ينتظرون الشروحات؛ لأنهم يقبلوننا دون شُرُوط، وها أنت تُملين عليّ شروطًا صعبة؛ بحثًا عن الحبِّ الضائع.

قصتي معكِ أسطورة بابليَّة مات أبطالُها على ضفاف الأنهار،

قصتي معكِ خُرافاتٌ صدقتُها، وكذَّبت نفسي.

كذَّبت نفسي حينما حدثتْني بأننا مختلفان، وبأننا ضدان، وبأننا متناقضان، ولكن جِئتُ إليكِ مع هذا متجاهلاً ذلك الصوت الخانق.

أوَيموت الأبطال في قصص الأساطير؟! رُبَّما يموتون، ورُبَّما هم ماتوا بالفعل، ولكنَّ الناس خلَّدوا ذكْرَهم؛ ليَبقوا معهم في دخيلتهم، وفي قريرة ذَوَاتهم.

هم يحبون الأساطير؛ لأنها تجعلهم يتصالحون مع نفوسهم العطشة إلى الخلود والبقاء.

وأنا الذي جِئت إليك مُضَرَّجًا بدمائي، عَلِّي أجد عندك مأْوًى آوي إليه.

الدماء غالية وباهظة الثمن؛ ولهذا نجد كثيرًا منها تُراق في بلاد كثيرة دون ثمنٍ! دون مُجيب! دون مَن يسأل: لماذا نحن هكذا؟!

ويلات الحروب والمعارك جعلَتْ من منظر الدماء أمرًا عاديًّا، تُصبح على الدماء، وتُمسي على الدماء، ولا أحدَ يَستنكر ذلك.

الغريب أنَّ الدول العربية لا تحرِّك ساكنًا، ولا يَستثيرها منظر شلالات الدماء التي تُراق كلَّ يوم، كلَّ ساعة، كلَّ لحظة من

لحظات العُمر.

لماذا وصلْنا إلى هاته الرَّتْوة أو إلى هاته الدَّركة من الانحطاط، في حين أن هناك منظماتٍ لحقوق الحيوان تُنْفق ملايين الدولارات لحمايتها؟!

أيَّة مفارقة هي؟! وأيُّ تناقضٍ هو؟!

ما زال طيفكِ يُراودني ويضطرني إلى أن أتأمَّلَ أحوال العالَم، بعد أن كنتِ أنتِ عالَمي.

ما زال صوتك العذب يطرق مسامعي كماءٍ رَقْراق ينحدِر بشكلٍ موسيقي جميل، وما زالت هيبتكِ تربكني وكأنَّكِ أمامي.

تَروي لنا القَصص عن شابٍّ قتَله العطش في بيداء حارَّة جدًّا، ثم لَمَح مِنْ بُعْد دوْحة صغيرة بها ماءٌ عذبٌ، فما زال يستحثُّ الخُطى، حتى إذا لَم يكن بينه وبينها إلاَّ شبرٌ واحد، قضَى وهلَك.

وأنا الهالك من بعدك، وأنا المقتول بسببك، المجروح لأجلك، المتناقض الشعور.

فوضويٌّ أنا حينما أردتُ الحياة، فآثرت الموت لأجْلك، ولأجْل تلك العيون العسلية التي تسحرني أبدًا.

ما جنايتي حتى تستبدي بي، وتسجنيني في زنزانة أفكاري؟

ما جُرمي حتى تُشيحي بوجْهك البَهِيِّ عنِّي؟

ثم أي تناقض هذا الذي تحملينه؟ تسرقين نظراتك صوبي على غفلة منِّي، وكأنَّك تريدين أن تبحثي في جِرْمي النحيل عن آثار الطَّعنات والألَم.

إن الألَم سيدتي بادٍ في وجهي، ظاهر في عينيّ، بارزٌ في كلِّ كِياني، ولكن الألَم الأكبر أحتفظُ به في داخلي؛ حتى لا أجعلك تسخرين مني، وتستبدِّين أكثر، أخاف على نفسي من مزيد إخفاق ونظرة انتصارٍ.

أتُراك انتصرت عليّ؟ أم أنا الذي هزمت مِن أوَّل جوْلة، من أوَّل محاولة، ومن أوَّل تجربة؟

تُذَكِّرني انتصاراتك بالحروب الباردة التي شنتْها أميركا والاتحاد السوفيتي على بعضهما بعضًا.

وحربي معك باردة، ولكن من نوعٍ آخر، أنت تستعرضين قوَّتك، وأنا أستعرض ضَعفي، فأي حربٍ هاته؟ وأيُّ تكافؤ بين المعسكرين؟ ولماذا حوَّلنا قضيَّتنا إلى سِجال؟ كان يكفي أن توافقي، وكان يكفي أن نعيش معًا بقيَّة عُمرنا بسرور المنتصر.

كان يكفي أن نعيش بأمانٍ، أو إن شِئْت بهُدنة تستمرُّ إلى زمن

طويل قابل للتمديد.

ولكنَّ عنادكِ أصرَّ على جعلك في موضع تظنين فيه أنَّك انتصرت، وأنَّكِ بذلك تستحقين أن تصبحي قائدة للحروب ضدِّي، أو ضدَّ المسالِمين مثلي تمامًا.

ولكنَّ الحقيقة أنَّك تنزعين في كلِّ عمل إجرامي ضدي نجمةً من النجمات الملقاة على كتفك؛ لتصبحي بعدها خالية الجعبة من كلِّ شيء.

ثلاث سنين بعد أن انتهتْ قصتك معي من الكفاح المسلح بيني وبين همومي، وأنت التي علَّمتني قسوة الحروب وشدَّة المعارك.

كنت أطوي ليلي ساهرًا أعدُّ النجوم؛ لعلِّي أبحث عن نجمة تُشبه امرأة هي أنتِ.

كنت أرى القمر متألِّقًا أكثر في كلِّ مرة، فخمَّنت أنَّك تنظرين إليه مثلي أنا.

أنت الحبُّ المستحيل والأمل الضائع، والبهجة التي لَم تتمَّ، والبهجة التي لَم تكتمل.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

لم يكن مقبولا لديّ أن أرتكس أو أن أرتدّ عن طبعي وخِيمي وأستغلّ وَهنَك وأتركك. لم يكن في خاطري أن أرتكب كبيرة كهذه.. أن أترك بحرَ الدموع في عينيك وأولّي ظهري ولا أعقّب. لا، لم تكن لتلك الأفكار القاتلة أن تسمح لي بأن أتجاوز ما ارتضيْتُه لنفسي، وأخذلكَ تاركاً أحلامك المنهارة وليلكَ الطويل وتنهيداتك المضّة، ونجمةً معلّقة في زاوية السماء ماتت منذ ألفِ عام.

كنتَ كعصفورٍ جريحٍ صوّبَ صيّاد إليه بندقيّته فلم يُصِبْه، بل تجاوزتِ الطلْقة مقتله، ولكنْ خلّفت جروحاً بالغة. كنتُ مَنْ حَمَل ذلك العصفور الصغير. كنتُ من عالجَه حتى شُفيَ، ولكنْ بقي خائفاً مذعوراً أن يأتيه صيّاد آخر فيوجّه إليه بندقيّة أخرى، فيصيبه في قلبْه. كنتُ ردْءاً لك أذود عنك ما وسعتْ طاقتي وما انتهى إليه جهدي وإخلاصي.

كنتَ وحيداً في صحراءَ شاسعة لا تتبيّن لها معالم، سوى الأشواك ودوّامات الرمال والقسوة والوحشة وليلٍ مقرورٍ ونهارٍ حارّ حارق. كنتُ لك واحةً وارفة الظّلال تقيك ذاك الويلَ كلّه.

كنْتَ تحبو كطفلٍ رضيعٍ يبكي بكاءً مرّاً يخالطه ذعرٌ، فَقَدَ أمّه في إحدى غارات العدوّ على البيوت والمنازل. كنتُ ملجأ آمناً لك،

أربّت على ظهرَك، وأمسّد شعرك، وأراك تكبر بين يدي بهدوءٍ غريبٍ.

كنتَ تنظر إليّ بعينٍ كعيْنِ الدّيكِ، صافية، تشبه بحراً هادئاً أو سماءً زرقاء. لم أكنْ أتخيّل أنّ تلك العينين يمكن لهما أن تخونا.. أن تغيبا.. أن تجدا أرضاً غيرَ أرضي، وسماءً غير سمائي، ويداً غير يدي تمسح عنهما الدمع إذا انهلّ وانحدر.

يشبه الأمرُ أن تنامَ، وتضع مدّخراتك التي أنفقت سنيناً طويلةً تجمعها في صندوقٍ تحت نظرك، فتنام تحلم بغدٍ جميل، ومستقبلٍ برّاق، وحياةٍ مفعمة بالرضا والهدوء، ثمّ تسيقظ، لا تجد شيئاً. أو يشبه الأمر أن تربّي طفلاً، وتراه يكبر ويكبر، ثم يستدّ ساعده ويشتدّ، فإذا هو يتنكّر لك.

كيف أصفك؟ أو بأيّ شيء أبدأ الكتابة عن بطولاتك الفدائية.. عن استبسالك في الذّود عن فُرصة البقاءِ. كتبت حروفاً وكلمات، صارت جملاً، غدت عباراتٍ، آضت قصّة قصيرة، أصبحت رواية ضخمة، مزّقتُ الصفحات، طمستُ الكلمات، شنقتُ الحروف، أحرقتُ القصّة القصيرة، ولكنك لم تمت.

روايتي معك ضخمة أجل، لكن خلاصتها كلمتان (أهلا مع السلامة). أهلاً أخي ومرحبا صديقي وحياك الله رفيقي وكن معي ولا تخذلني ولا تتركني، ثمّ فجوة، نموّ سريع. إبرة كيماوية. عنبٌ حامضٌ لم ينضج بعد. استعجلتَ الرحيل.. ظننتَ أنك قويّ بما فيه الكفاية كي ترحل.

لكنّي أنفخ في كيس مثقوب، أصرخ في وادٍ سحيق، فيه خيطُ ماءٍ ينهمل في قعر بئر، ينقطع على حافة صخرة تعترض طريقه إليّ. كنتُ في قعر تلك البئر.

رأيتُ فيما يرى النائم أنّك تركضُ في شارعٍ أسودَ، طويلٍ عريضٍ، لم تكن تتنبّه إلى قدميك.. كانتا مشدودتين بقَيْد غليظ ووراءك كان الحبل طويلاً طويلاً.

قلبي الليلة آلمني كما لم يؤلمني من قبْلُ. خوف. قلق. هلع. رعب. حرارة مرتفعة. جفاق حلق. تيبّس. قال الطبيبُ: «نبضات قلبك واهنة». شعرتُ بدوارٍ. تماسكتُ. قلت له ممازحاً وفيّ فيضٌ من الحزن الكاوي: «يعني متى يتوقّف؟». أحسستُ الدنيا لا تساوي شيئاً. نولد. نحبو. نكبر. نترعرع. نشبّ. ثمّ حزنٌ أليم يوقف فينا الأمل. كنتُ في مواجهة الموتِ. كان بإمكانه أن يثبَ عليّ، وأنا ممدّد على السّرير الأبيض. لا شيء سوى رحمة الله. تصاعدت من

جوفي إلى صدري حرارة عالية. تنخفض. أستغفر الله العظيم. أرجع إلى رشدي. أتمالك أعصابي. أرتدّ. أنتكس. لا أحد بجانبي يؤازرني. يرفع همتي. يخفّف مصابي. يقول: «لا بأسَ عليك. عارضٌ ويزول». لم يكن عندي أحد، أيُعقل أن تكونَ أنت خيالاً. حوّلني على المستشفى. بعد ساعتين. جاء ممرّضان. كشفا عن صدري. عملا تخطيطا للقلب. ثمّ جاء ممرّض آخر. سحب منّي عيّنة دم. ثم ذهب. رجع مرّة أخرى. قال: «الطبيب أمرني بأن أسحب عينات أخرى». يااا ربّ. الأمر خطير جداً. لم يعد الممرضون ولا الأطباء يتكلّمون بلغةٍ لا يفهمها المرضى. يقذفون الكلام في وجوهنا ولا يأبهون بحالتنا المترهّلة.. انتظار. توجّس. ترقّب. «بشّر يا طبيب». «لا نستطيع أن نقرّر إلا بعد أن تصدر نتائج التحاليل». يا إلهي. الأمر عظيم. انهرتُ. قلبي منقبض. صدري مكتوم. تنفّسي. عيني. أعضائي اتّحدت لتعزف سيمفونيّة الموت. وصراخ المرضى. وسيارات الإسعاف. وقلبي أنا. ودقات قلبي الواهنة؟ بعد خمسة دهور طويلة. ظهرت نتائج التحليلات: لا شيء.. أعطاني دواء وموعداً لعيادة القلب. يا الله. سيتوقّف قلبي إذن. يسخر بي الطبيب إذن. يخدعني الطبيب إذن. لا يريد أن يكشف عن علتي

إذن، وتنقطع أنفاسي. وأموتُ الآن دون أن تشعر بمصابي. دون أن تستسمح مني.

خرجتُ من المستشفى مذعوراً لا أعرف ماذا أفعل. في الدرجات الملتوية خفّفتُ عن نفسي بآياتٍ من القرآن الكريم. أحسستُ بهدوءٍ. لم يلبث. انتكست. ذعرتُ. بطني منتفخ. أنفاسي ضعيفة. قلبي سيتوّقف. كنت متأرجحاً. لا هناك ولا هنا. إن أمُتْ فلأمت هادئاً. هذا عذاب عظيم. دعوتُ الله: «ربّ أطل عمري وأحسن عملي وبارك في صحتي». ذهني مشوّش. صدري مطبقٌ عليّ. قلبي متذبذب. ريشة عصفور عليل. يا ألله. يا ألله. ساعدني. كانت ليلةً صعبة صعبة. لا أحد معي يخفّف همّي. وذاك الطبيب زرع فيّ هذه القنبلة ومضى. لمَ لم يهدّئني؟! لمَ لمْ يطمئنّي؟ لمَ لمْ يقل لي كلاماً مصبّراً. قلبك دقاته ضعيفة. بالكاد ينبض. سنجلب لك على الفور سيّارة إسعاف. ارتجفت. تعرّقت. اصفرّ وجهي. يقول لي الطبيب: وجهك أصفر! ياااا الله! كيف لهذا الطبيب أن يتعامل مع مرضاه.

كلّ هذا وأنتَ لا تدْري، ولن تدري. أصبتُ بتهيّج القولون. وبعد الفحوصات والتحاليل تبيّن لي أنّ القلب سليمٌ تماماً، وأن ما بي كان بسبب تهيّج القولون. صرف لي الطبيب دواء للقولون. ولكنّ

القلق نخر عظامي. اخترق هدوئي. نفذ إلى حزني. ليضيف إلى تعبي تعباً وإلى شيبي شيباً وإلى ألمي جرحاً عميقاً. وأنت لا تدري. مع كلّ هذا الدّمارِ الذي أحدثْتَه فيّ سنحتْ لي فُرصَة ضئيلة ومساحة ضيّقة للتفكير. يشبه الأمرُ أن تمرّر جسمَك الضَّخْمَ من بين قضبان حديدٍ لا يكاد النور ينفذ منها. فكّرْتُ: كيفَ لإنسانٍ وجد النور أمامه فولّاه ظهره ويمّم شطرَ الظلام؟! كيف لنَفْسٍ أن تكتحِلَ بغمْضٍ وثمّة من يتقلّب على فراش المعاناة؟! كيف لـ...، ولكنّ هذه المساحة انسدّتْ. تشوّش تفكيري. عاودتْني الأعراض. القلق. الهلع. التوتّر. الخوف المَرَضيّ. القلب. دقاته الواهية. انطباق الصدر. انقطاع النّفَس. الرغبة الجامحة في الاستسلام. الارتماء كالجثة الهامدة على الفراش. الشعور المؤكّد بدنوّ الأجل. التجشّؤ. الخوف من أن أفقدَ عقلي. الخوف من الجنون. الاغتراب. الاستلاب. أهذه أعراض؟ أهذه مؤثّرات؟ أهذه مقدّمات؟ كلّ عَرَضٍ منها يكفي أن ينغّص حياة أمّة كاملة. وأنت! أتدري بما يحلّ بي؟ بما آلت إليه أحوالي؟

أتذكرُ؟ في زَمَنٍ أَبَقَ؟ كنتُ صحيحَ الجِسْمِ والعَقْلِ والنّفْسِ والروحِ. في زَمَنِ الرّشاد. كنْتُ أستطيع أن أدعكَ تعاني ما تعاني من ألوان العذابِ لا شيء يعنيني. لا شيء يربطه بي صلة. كان

بإمكاني أن أتعامى عن نداءاتك.. عن صوتِك الضعيف.. عن يدك المرتعشة، وفمك المتيبّس.. عن قلبك المعطوب.. ولكنْ أنّى لي أن أتركك في هذه الحال البائسة؟! كيف لي أن أنامَ وما زار النومُ عينيكَ؟ كيف لي أن أغفو وما عاجِ النعاس بجفونكَ؟ كيف لي أن أستنكف عن جِبِلّتي؟

كيف لي أن....؟

ها قد عاودتني هذه الحالة البائسة.. لا تدري ولن تدري.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

مَـدْخَلٌ ...!

ما أكثرَ ما يحدثُ...! أن تَنْهَدَ لَهُمْ ، وكلُّكَ تَوْقٌ إلى ألاّ تندّ عن قاعدة الوفاء...!

وإذا هم قد هلَكوا في الذاكرة المُشْرَعَة للناس، وتسَرْمَدوا في ثنايا الذات، حيث لا يصل إليهم تعليقٌ ساخرٌ أو لسانٌ واشٍ...!

اِنْبِعَاثٌ

مدَاراتُ الأوْقاتُ مِنْ بَعْدَك تَشِي بالتّوَهان، غيرَ أن الليلَ طويلٌ كأنّما نجومُه شُدّت بالجبال الرواسي كما يقول امرؤ القيس. توقّفت عروقٌ، ونزحت دماء، وعظمت رزايا، وتكدّست من فوقها أثقالٌ تنوء بحمّالها، الخَيْبَة تكسو محيّاه، وتفاصيل الخذلان بازغة بوضوحٍ في وجهه الذي فقد رواءَه، واختفت فجأة نضارته. العيش من بعدَكِ فقَد أيضًا غضارتَه، فاستحالَ جحيمًا.

بُقْعَة ألمٍ كانت منكفئةً على نَفْسِها في أحد زوايا القلب المنسيّ، لَمْ تلبثْ أن بعثها ألمٌ آخر، نشَرها كعهن منفوشٍ أمام عينيّ، بعثها لتكون امتدادًا لها، وخيوط الفَجْر توشك أن تتقطّعَ، والزمن يمشي الهوينى مرّة، ويتوقف مرات.

الَقلْبُ الذي أُتْلِف كأنّما انتهتْ صلاحيّته للنّبْضِ والعَيْش

المُرْهَف، والرّياح العاتية ما تَزال تَفْتِك بذاك البُسْتان المُتْخَمِ بالورود والأفانين، وبقايا شَوْق دفين. فصوّحتْ اخضرارَ الْحَرْف، واستحالت اِسْتقرارَ الفؤاد خفقانًا ووجيبًا.

رحيلُكِ المباغتُ كشهقةِ مَوْتٍ طاردَ ليليَ الطويلَ...! والتّاريخ المدوّنُ لا يخطّه إلاّ المنتصرون...! وأنا التاريخُ والقلمُ النازفُ...!

والحبّ الذي عتّقتُه في فؤادي لكِ أنتِ وحدكِ زمانًا طويلاً ذَهب أدراجَ الخَيْبَة! سيُلْقى في الطرقات كطفلٍ شريدٍ أبَقَ من قسوة الظروف، وإذا هو يهيم على وجهه، لا يهتدي إلى مثوىً آمنٍ سبيلاً، وإذا هو يجد نفسه في هجيرِ الصحراء القاحلة، حيث لا ظلّ يقيه من أشعّة الشمس القوية، وحيث لا مأوى ينجيه من لسع رياح السموم وَ لفْحِها..!

عفْوًا سيّدتي! إنّك تقرئينني جيّدًا، ككتابٍ مُشْرَعٍ، بين يديك تقلّبين صفحاته، وئيدًا وئيدًا، بَيْد أنّكِ تتقصّدين إثارة تَعَبِ الفصول فيّ! أيّهذا الألم القاصي؟ إنّني مُتْخَم بالفضول.!

وأُلمُكِ الذي مررْتُ بمحاذاتِه، كصديقٍ حميم، أمسكُه بيدٍ، وأضع على موضعِ جُرْحهِ يدًا أخرى، كيما يندملَ، سوّل لي أنه سيحافظ على عهده إن شُفي، ويبقى بجانبي، لا الظروفَ تبعده، ولا التحديات تشتت شملَه أو تهدّ كيانَه...!

المَوْتُ...!! هو السببُ الأوحدُ الذي بِمَكْنَتِه أن يَحُوْلَ دون تدانينا، هو الحاجزُ الوحيدُ الذي باستطاعته أن يلجِمَني بلجامِ من نار تأتي على جميع أشلائي...! هو الوحيد القادر على أن يقف بوجهي، ويصرخ أيضًا: ارضَ أو لا ترضَ... فأنا البرزخ بينكما...! هو الشيء الوحيد الذي تواطأنا عليه...! عدا ذلك فلن يبعدنا شيءٌ، مهما كان، عن بعضنا بعضًا...!

هكذا تصوّرتُ الحياة، أرسمها بفُرشاتي الساذجة... سائرةً إلى حيث أشتهي. كسفينةٍ حذّاقٍ رُبّانُها، يعرف كيف يوجّهها، وإلى أيِّ وجهٍ يسيّرها، ولم يقعْ في رُوعِه أيّ وجْه لاعتراض سفينته، كصخرة أو دوّامة تدمّرها ومَن على متنِها...! وإذا هو مُسْرِف في ركونه إلى نفسْه، وإذا السفينةُ مُغرِبَةٌ في شقّ عباب الماء، يحدث الذي ما لا نضعه في قائمة التوقعات، ويحصل من الكوارث ما لا نكترث لإمكانية وقوعه، إذِ اعترضَ طريقَ السفينة صخرةٌ جاثمةٌ في وسط البحر ارتطمتْ بها كأشدّ ما يكون الارتطام، وإذا الربان يفيق من غفلته ثمّ يغيب عن وعيه...!

وأنا مذْ رحلتِ على حين غرّة غائبٌ عن وعيي، أكتب دونما هوادة ودونما أمل...!

أقسو على الظروف، وعلى المشاعر البليدة، أسعى إلى أن أناوئ

الوضْع الجديد الذي ألتُ إليه بعْدَكِ، كصخرة أبي بصير، أروم نطحها لأفلقها. لكنّها أوهتني.!!!!

كُنْتِ دومًا أيقونةً أحملها بقلبي حينما يتعبني المسير وحيدًا، أنْهَدُ للحياةِ متحدّيًا كلّ شيءٍ. كنت جبلاً شاهقًا يعصمني من الماء، أو هكذا كنت أظنّ، ينقذني من الغرق في زمانٍ كثرت لججُه وحيازيمُه...! وإذا أنتِ بين عشيّة وضحاها قد أصبحتِ جبلاً آخرَ، ولكنْ من ثَلْجٍ، لم يعد يقوى على تحمّل أشعّة الشمس الحقيقية فانهار وذاب ثمّ أغرقني...! وقد يكون الخطأ خطئي، أن أركن إلى جبالٍ مِنْ ثلجٍ لا تثبتُ أمام شعاع حقيقة! ولكنني أيضًا، يا سيّدة الثلج الأبيض، عددْتُك راسيةً عصيّة...! فلا تُنْكريني...!

هذا من فُرْط ثقتي بكِ.. كنتِ شمسَ شتاء عابرة وسط السماء... استحالت زمهريرًا أيقظت سباتي الموغل، وأثارت في أطوائي معانيَ للقسوة المقبلة والتلاوين...!

ولكنكِ تأبين الرحيل، ملتصقة بذاكرتي، كباقي وشْمٍ في يدِ خولةَ، تلوح لي من بُعدٍ بأن لا تنسَني..!

واللهِ ما نسيتُ قطّ...! وما أنا بالذي يتجاهل أعزّ الأحباب...! وما عنكِ محيصٌ..! ولكنْ ما إليك من سبيل...! فلمَ الظلم إذن؟!

امرأة بملامحَ بريئةٍ، تفعل بقلبٍ مثقل بالجروح ما لا يفعله الغريب، بل إن الغريب لأرحمُ بنا من أحبابنا، فهم يحملون همومَنا، ويحفطون أسرارَنا، ويتلهّفون إلى أن يرسموا البسمةَ على ثغورِنا...!

باستطاعتي أن أحرّف الكَلِمَ عن مواضعِه، وأن ألبسَ على نفسي لباسَ النسيان، ولكنني لا أستطيع أن أكبت صرختي، وأنْ أخونَ ذاتي، وأن أحدثها كذبًا عنْكِ، وما الذي أحدثته في قريرتي من مشاعرَ تحتضر...!

ولكنكِ ما تزالين بؤرتي، مهما فرّقت بيننا المهامه والفجاج...! ما تزالين مركوزة في أقصى القلب؛ القلبِ الذي ما انفكّ ينبضك، ويضخّك دمًا فوّاحًا...! قلبٍ يُشبه ألمك، مُتْعَب مكدود...!

انْكِفاءٌ

لِكُلِّ شيْءٍ نهاية، أليمة أو بهيجة، وهذا شيء راسخٌ في النفوس، ولكنْ ثَمّ نهاياتٌ لم نستوعبْ حدوثها، تأتي بصورةٍ مفاجئة، لا نتوقع سطوتها ، فترهقنا وتقصمنا وتكسرنا، وتقرّبنا من حَتْفنا وهلاكنا. إنها صفعة دَهْرٍ متربّص نفيء بها إلى رُشْدنا، ولكن بَعْد أَزَفِ الوَقْتِ.

مَخْرَجٌ ...!

الليلةُ الماطرةُ تبدو باردةً جدًا...! والليلةُ الدافئة تُظْهِر أثرَها مُسَبّقًا...! والطعناتُ المتكررةُ في الظّهرِ لا يجدي الوقتُ معها...! بل ستزداد إيغالاً واغورارًا كلما تقدّم...! وهذا أنا، جِرْمٌ بملامحَ باهتةٍ، ووجهٌ شاحبٌ، وقوّةٌ واهيةٌ واهنةٌ...! شَبَحٌ في ديجورٍ ... قد ذاق ما لم يكن بالحسبان...!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

قد يحدث أن تخرج من تجربة سعيدةٍ أو حزينةٍ

يحدُث أنْ تخرجَ من تجربةٍ سعيدةٍ أو حزينةٍ - لا يهمُّ الأمر - ويحدث أن تنفقَ الساعاتِ والأيامَ والشهورَ وأنت لاهٍ عنها غير مكترثٍ بها، وذلك بعد أنْ أحرقت في داخِلك غابات من الحبِّ أو الحنين، فأصبحتْ كقِطَع الثلج أو رمادًا، ونظَّفت قلبك من آثار الحبِّ والأمل الموهوم.

ويحدث أيضًا أنْ تُسيِّر حياتك بوجهٍ مُرْضٍ لك، إذا أنت رفعت شعار: "ارضَ بما ليس منه بُدٌّ"، وها أنت ذا تُحاوِل أن ترسيَ ذلك الشعار في قريرتك؛ بحيث يصبح ذا حُضورٍ قويٍّ تَخاف معه الجنوح لذلك الماضي.

ويحدث أنْ توهم نفسك بأنَّ الماضي قد انمحى من ذاكرتك، وبأنَّك أصبحت بلا ذاكرة، أو إنْ شِئتَ بذاكرةٍ جديدةٍ تختلف اختلافًا جذريًّا عن الذاكرة القديمة، وتُحاوِل أنْ تعيش وفقًا لها؛ فتأتي وتذهب، وتصادق وتعاون، وتغضب وترضى، وكأنَّك لم تكن في يومٍ من الأيَّام على موعدٍ مع الأحزان أو التجارب القاتلة.

وتتوهَّم أيضًا بأنَّ هذه الذاكرة البِكْرَ قد أعادَتْ لحياتك توازُنها، ولوجهك رواءَه، ولبسمتك روعتها، ولنفسيَّتك هُدوءها، ولقلبك نبضَه وحياتَه.

ويحدث أنْ تستَمتِع بحياتك الجديدة بعضَ الوقت، وأنْ تصبح مأخوذًا بها، وأنْ تكون في غبطةٍ من أمرك، لا تخفي تلك الابتسامة الغامضة التي تكسو وجهك وتعلو محيَّاك، إلا شيئًا قليلاً من سعادتك بوضعك الجديد.

ولكن ما أنْ تختلي بنفسك بعيدًا عن صخب الحياة وضوضائها حتى يتأوَّبك ذلك الماضي الأليم، ويتراءى لك وكأنه حاضرك، وإذا أنت تستعيدُ تفاصيل كلِّ هاتيك الذكريات التي جاهدتَ عبثًا في نِسيانها أو تَناسيها، وإذا حالُك قد انقَلبَ، وإذا نفسيَّتك قد تعكَّر صفوُها، وإذا أنت لا تعرف ماذا تعمل!

ألهذا الحدِّ تستفزُّك الذاكرة، وتقضُّ عليك مضجعك، وتأتيك من حيث لا تحتسب، بعد أنْ وطَّنتَ نفسك على الحياة الجديدة، وعاهَدتها بأنْ تغسل يديك من آثار الماضي وألمه؟

أللذاكرة هذا الحضور القويُّ الملحُّ الذي يكون كفيلاً باستحالة حياتك في لحظةِ هدوء جئتَ تبتغيها بعيدًا عن ضوضاء الحياة؟! إذًا ثابَتْ إليك الذاكرة الأمُّ، حاملةً معها ملفَّات كلِّ شيء، وطفقْتَ تبحَثُ عن مخرجٍ سريع لهذه المشكلة.

وعندما يَثُوب الشيء في لحظة غفلة تصبح الأمور هنالك مُربِكة كثيرًا؛ ولهذا فأنت لا تستطيع أنْ تمنعها من الولوج، ولا أنت تستطيع أنْ تجبرها على المغادرة.

إذًا دَعْها تقيم فيك بعض الوقت، إذ هي سترحل ما من ذلك شكّ.

سترحل بعد أنْ تحقق أهدافها التي تكمُن في أنها حاضِرةٌ، وأنَّه من العسير عليك أنْ تتخلَّى عنها وقد كانت في يومٍ من الأيام حياتك وآمالك وطُموحاتك وأهدافك، وكأنَّك بها تقول: أتراك تتنكَّر لي وتنسى أجمل ساعاتي؟ ألهذا الحدِّ كفرت بي وبلحظات سعادتك؟

إنها لأمورٌ محرجةٌ هذه التي تتنكَّر لها بعد أنْ كنت كلَّ شيء لها، أو بعد أنْ كانت كلَّ شيء لك، وها أنت ذا تخرج من جلدها! ويحدث أنْ تبكيَ بكاء مُرًّا، وأنْ تخضلَّ عيناك بالدمع المختلط بالدم:

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ

وَهَمٌّ، إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهِرُ

لِذِكْرَى حَبِيبٍ هَيَّجَتْ ثُمَّ عَبْرَةً

سَفُوحًا، وَأَسْبَابُ البُكَاءِ التَّذَكُّرُ

يحدُث هذا وأنت في حيرة من أمرِك، لا تعرف ماذا تفعل؟ ولا أيَّ الطريقين تسلُك؟ هل تسلُك طريق الماضي فتنقِّب عن دهاليزه، ومنحنياته، ومنعطفاته، ثم لا تجدُ سوى الذكرى تتربَّص بك في أحد الممرَّات الضيِّقة، أم تسلُك طريق المستقبل، وتقطع صلتك بالماضي وتصبح إنسانًا جديدًا لا علاقة له به؟

هل تبكي على طلول الماضي وآثار الدِّيار، وتستبكي معك مَن هم حولك حتى يُقدِّروا معاناتك ويعذروك؟

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ البُكَاءَ سَفَاهَةٌ

وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالبُكَا مَنْ يُفْجَعُ

أم تتغلَّب على ضعفك وتيمِّم صوب المستقبل، وتُحاوِل البحث عن مرسًى تُثبِّت قدميك فيه بعيدًا عن رياح الماضي وعواصف الذكرى؟

سَأَعِيشُ رَغْمَ الدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ

كَالنَّسْرِ فَوْقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ

إنَّ الأمر إنما يرتَكِز على همَّتك وإرادتك، أو إنْ شئت على سعادتك وهنائك؛ إذ إنَّ الكثيرين من الناس يرَوْن في استحضار صورة الماضي والعيش فيه وعلى ظِلاله نشوةً تَفُوق نشوة الاستِمتاع بالحاضر إنْ وجدت مقوماته، فلماذا نقطع على هؤلاء سعادتهم وهناءهم؟

إنَّنا نعذر هؤلاء لأنهم لم يجدوا واقعًا يمكنهم من العيش فيه بتصالحٍ مع الحياة وظُروفها؛ فلذلك فاؤوا إلى الماضي حيث شجرات الذكريَّات والحنين الوارفة الظلال.

وأعجَبُ من هذا أن تجد أحدَهم معذبًا في حاضِرِه، وتراه مستمتعًا بذلك مغتبطًا، فمن ذلك ما رواه ابنُ حزم الأندلسي في كاتبه

"طوق الحمامة" من أنَّه علم فتًى من بعض معارفه قد تورَّط في الحبِّ ووقع في شركه، وقد رأى ابن حزم على وجهه أثر الاكتئاب وسوء الحال، فقال له في بعض قوله: "فرَّج الله عنك"، فما كان من ابن حزم إلا أنْ رأى أثَر الكراهية في وجهه، وكثيرةٌ هي القصص التي تندرج تحت هذا النمط.

ولكنَّ الشيء المحزن حقًّا أنْ ترى أناسًا لا يستطيعون أنْ ينفكُّوا من الماضي برغم كلِّ محاولاتهم في نِسيانه التي دائمًا ما تَبُوء بالفشل، فلا هو كسب شيئًا في الماضي، ولا هو سعد في الحاضر، وأخلِقْ به مُتَجافيًا عن السعادة في المستقبل.

إنها الذاكرة حين تطلُّ عليك دُون موعدٍ مسبَّق معك،؛ لتخرج سعادتك الموهومة من النافذة.

فلتحذر!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

الفراق قطعة ملتهبة متأججة من العذاب. إنه كالسفَر الطويـــل لا يكاد ظاعنه أن يؤوب.

إنه كالمسافة الفاصلة بين الألم والألم الذي يتلوه.

إنه كالموت الذي يأتي على كلّ شيء، ولا يستطيع أي أحد مهما بلغت قوته أن يردّه. إنه كالصخرة الكبيرة الجاثمة على الصدر.

ويحدث أن نصبح وحدنا، فالحبيب الذي قد كان فيما مضى مشاركًا لنا أحلامنا وطموحاتنا قد رحل، وبقيت الحسرات ثاوية، والآلام مقيمة، والأوجاع راتبة، والجروح تنزف بغزارة.

كم صعبة هي الحياة حينما ينهار البناء الشامخ دفقة واحدة! حينما تستحيل الأماني إلى أحلام خرافيّة! حينما تغدو المصاعب ماثلة نصب أعيننا!

ويحدث أن نتألم، نتألم كثيرًا، كثيرًا جدًا، بقدر ما أحببنا، وبقدر ما عشقنا أنفاسًا تعجّ بالألق، وبقدر ما كانت سعادتنا مع الظاعن الذي أبدًا لن يؤوب.

ويحدث أن نتتظر الموت، الموت الذي كنّا نخافه ونتوجس منه، فقد استمرأنا ما هو أشدّ إيلامًا في حياتنا، وبقي لنا الموت ليكمل الرحلة الأليمة وينهيها في أرضه.

ويحدث أن نردد بكل ما أوتينا من قهر وذبول:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ
لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لَكالطِّوَلِ المُرخى وثِنياهُ باليَدِ

"يومًا ما سيأتي الفراق ويوما ما سنتألم ويوما ما سيتفرع الطريق ويمضي كل منا في طريقه . نكبر مع الفراق تشوهنا التجاعيد تدفن الأرض أحلامنا ونموت بالحقيقة نموت بالواقع نموت مع الزمن حتى تحتضننا الأرض"

ولعمر الله تعالى إن الموت لأهون علينا من الفراق وقسوته، والألم وحدته، والحنين وشدّته،،

وقد يحدث أن نتمنى الموت، فهو السبيل الأوحد لإراحتنا من شقائنا الذي خلفه هذا (الظاعن):

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خيرَ فيه

ألا موت لذيذ الطعم شافٍ يخلّصني من العيش الكريه

ألا رحم المهيمن قبْرَ حرٍّ تصدّق بالوفاة على أخيه

إن الفراق أمر حتمي، وشيء قارّ في هذه الحياة، فلْينتظر من يخالل فراقًا، ولْيستعدّ لهذه اللحظات الرهيبة، حيث الوحدةُ والدمعة والألم والذاكرة التي ستجود بكلّ قوّة في إمدادك بأدق التفاصيل عن ماضيك الجميل الذي غدا حاضرًا أليمًا، وحينها أدعوك معي لتردد:

يا موت!

ياظلي الذي سيقودني

يا ثالث الاثنين

يا لون التردد في الزمرد والزبرجد

اجلس على الكرسي!

ضع أدوات صيدك تحت نافذتي

...لا تحدق يا قوي إلى شراييني

لترصد نقطة الضعف الأخيرة!

أنت أقوى من نظام الطب!

أقوى من جهاز تنفسي!

ولست محتاجا - لتقتلني - إلى مرضي!

فكن أسمى من الحشرات!

كن من أنت كن قويا ، ناصعا،

واخلع عنك أقنعة الثعالب!

كن فروسيا، بهيا، كامل الضربات!

* * * * *

أصرّ سَدَنَةُ الحداثةِ على أن أكتب بالرموز، أن أصِلَ إلى الناس بأفكارٍ مبطّنةٍ حتى لا يقرأني أحدٌ منهم إلا بشقّ الأنفس، أن أستخدم الألغاز والأساطير وبعض الأقنعة للوصول إلى بُغْيَتي، وأن أطَعِّمَ كتابتي بحدثٍ تاريخيّ وربّما خرافيٍّ كي تغدُوَ أكثرَ تعقيداً وعمقاً....!

يجب عليك أن تكتبَ بطريقة غير مباشرة، غير الذي تعوّدتَ عليها، الزمان يتعقّد، والكتابات أيضًا تتعقّد، كُن قفلاً يصعب فتحه، ولا تكن سهلا مستساغًا يفهمك جميع الناس والقراء والمتلقّين...! كنْ أبا تمّامَ زمانِك...!!!

ولكنّي لا أجيد سوى المباشرة، أن أقول للذي أحبه: أحبّك وللذي أكرهه أكرهك، دون مواربة أو لوْيِ النصّ، وربّما دون انزياح في أصل الشعور، ودون لباقةٍ فكرية يَفْهَمها مَنْ أخاطب. هكذا كما توجّه رصاصة إلى صدره دون سابق إنذار، ودون أن أتأخّر ثمّ أصوّب الخنجر في ظهره كما فعل أصحابنا مِنْ قبل "في قصّة كليب وجسّاس" والناقة الشمطاء " التي أشعلت فتيل الحرب أربعين عامًا...!

أن تقول لمَنْ ساعدك لقد ساعدتني حقاً أفضل مِنْ أن تقول له كلامًا غامضًا له ألف ألف تأويل إلاّ أن تشكره...!

أن أعترفَ بتعبي فأقول لقد تعبْتُ هكذا عاريةً عن التعقيد، كيْ تفهمَني وتساعدَني. أفضل مِنْ أن أسمّعَكَ كلامًا تلميحًا وتعريضًا ولا أصِلَ فيه إلى هدفي.

ولكنْ يحدث أن ترضخَ لهم دون أن يجبروك...! هكذا كما تناقضٍ بين شيئين، بين متضادين، تمامًا مثل حبل شددْتَه فانقطع. تماماً مثل قوس تأهّبْتَ رمي السهم عنه فانطلق...! أن أكتب متكئًا على أريكة الرموز، كي يخرج النصّ عبقريًا شامخًا. لقد أجادَ الكتابة، حقًا كاتبٌ متميّزٌ، مثقّفٌ، يتنقّل بين عرائش الأساطير ولامباشرة الكتابات...! أن تتعلّم السباحة في المحيط وأنت عاجزٌ عن السباحة في شبْرِ ماء...!

فطفقتُ أكتب متناسيًا كلَّ شَيْءٍ ونابذَه وراءَ ظَهْرِي. القصّة حاضرةٌ في ذهني، والقالب جاهز؛ استخدام الأساليب غير المباشرة في الكتابة...!

بدأتُ...القصّة هي قصّة فراق أبدي بعد وِصالٍ ما كنتُ لأعتقد أنّ له نهايةً غير الموت. فما الرمز الذي يناسب هذه القصّة؟ سؤال دار في فكري حينما قرّرْت أن أوارب...!

ما أكثرَ القَصَصَ التي تَتَحدّثُ عَنْ هذا الكائنِ البَغيضِ "الحبّ"..! وما أكثر ما شُرِّح وفُسِّر، كُلُّ حِزْبٍ بما لدَيْهِمْ فَرِحون، فلم يَسْلَمْ

مِنْ تَأويلٍ فَلْسَفِيّ ولا تنجيميّ ولا طبّي ولا حتّى هَزَليّ. صوّره "دراما" تهريجيّة يُقْذَفُ به ذات اليمين وذات الشمال، وهو متنكّر لنفسه ومستهجِنٌ مِنْ تدنيس النّاس له...! "أنا الحبّ يا قومُ...!" الغزل العذري....! أول نافذة أطلّت عليّ...! ربّما أريد لهذا الفِكْر المتجمّع في عقلي أن يدور، ويبزغ على سطح الكتابة لعلّني أنقذ "الحبّ" مِنْ دونيّته التي عُرِفَ بها في آخر دائرة من دوائر الزمن المجيد...!

قصصٌ أسطوريّة كثيرة تتحدّث في عُصارتها عن حبيبين التقيا عند "غدير" الماء وبدءا بشتم بعضهما بعضًا ثم استملحُ كلٌّ مِنْهما سُبابَ الآخَر، ثم علِقَ الشابّ "ولا بدّ أن يكون شاعرًا" بالمرأة، وشغف بها، ويبدأ يكتب فيها الأشعار تلو الأشعار حتّى يُذاعَ بين الوشاة، الذين بدورِهم "يحفرون" بينهما، تماما كما تحفر بين ثنايا نصّ...! ويصل خبر عشقهما لأبيها فيمنعه مِن الزواج بها..! ثم ترتحل المحبوبة مع أهلها ويبقى الشاعر المتيّم واقفًا على أطلال الخيبة، متبلّغًا بالأيّام السالفات، حتى يُجَنُّ أو يموت!..

لكنّي أريد أن أصل إلى أوّل حبّ في تاريخ الأساطير، قصة العذريين معروفة عند العوامّ، أريد أن أكتب للمثقفين، كي تغدو الكتابة

مثقّفة عاليَة المعاني ومشرعة للتأويلات...!

لأنّ خطاب الحبّ/مع الكتابة عنْ أوّل مَن أحبّ وأوّل مَنْ عَشِقَ يحتّم عليّ أن أستمرئ مفهوم الحبّ مِن وجهة نظره، كي لا أكتب فيما لا أعلم، أو أن أبتعد كثيرًا عن جادّة الموضوع/الحبّ....!

قرّرْتُ أن أقوم بالكتابة عن قصّةِ إحدى الموادّ الكرتونية التي كانت تستهويني، إنها "الكابتن رابح" وبعيدًا عن صخب مباريات كرة القدم التي لعبها وعن البطولات التي شارك فيها حتى بلغ مبتغاه، وهو المشاركة في البطولات العالمية، ويحقق طموحه الذي كان يراوده منذ نعومة أظفاره، بعيدًا عن كلّ هذا لفت انتباهي قصّة حبّه لأخت زميله في كرة القدم "كاترين"... أنا حينما كنت أتابعه لأوّل مرة حسِبْتَ أمر حبّهما خيانة لجوليان زميل الكابتن رابح، إذ كيف يخون الصديق صديقه؟

هل وصل الحدّ برابح بعد أن أتقن احترافَ كرة القدم أن يحترف الحبّ والعشق؟!

ولكني كنت صغيرًا بحيث إني لم أتتبع عاقبة أمرهما، ولو كنت مُغْرِبَ النَّظَرِ فيهما لتشوّقتُ لأعرف مصيرهما... ربّما لم يتزوّجا بالرغم من هذا الحبّ....!

ولكنْ هذه القصة أيضًا يعرفها الكبارُ الذين كانوا صغارًا. أريد قصّة مباغتة لا يعرف بها أحد...!

رجعْتُ إلى بحثي عن أوّل حبّ في تاريخ الأساطير، و-الحبّ كله أسطورة- فاكتشفْت أنّ أوّل حبّ هو حبّ عشتار...! سيّدة الحبّ، وأوّل العاشقات "أنا النار الملتهبة" "اجعلني كخاتم على قلبك لأن المحبة قويّة كالموت".

أحبّتْ عشتارُ تموزَ ولكنها أنزلته لعالمها السفلي، فأي حبّ هذا...؟ أن تحبّ شخصًا فيحبّك، ثمّ ترميَ به في قعر الحِرْمان....؟

ثمّ لا يجدي البكاء بعدئذٍ:

أنت كُنْتَ زوجي

أنا سَأكون امرأتك

وسأعطيك أن تمارس الملوكيّة في الأرض الفسيحة

وبيدك سأضع لوح الحكمة

فَكُنْ أنتَ السيّد، وأنا السيّدة

يا لها مِن كاذبة..! سَتعطيه لوح الحكمة مع أنها مفتقدة إليه، فهل بدأ الحبّ بكذبة وانتهى بكذبة...! لو كنتُ مكانَ "تموز"

لرميت هذا اللوح في وجهها وأقول: أنت واهمة، لست حكيمة، تحبينني وتقتلينني وتدّعين أصوليّة الحكمة...!

فعدت أدراجي إلى الحبّ العذري، لأني تذكّرتُ أمرًا ينبغي لي قوله، وهو أن الحبّ أوّل المراتب في إرادة القلب للقلب وانجذابه له، وقد تجاوز العذريين هذه المرحلة حتى وصلوا إلى مرحلة الحبّ الأخيرة وهي "الفراق".

فأي حبّ هذا الذي ينمو ويترعرع ثم يكون نهايته الفراق؟

إذن الحبّ خطاب مأساوي لا حقيقة له، على الأقلّ بهذه الصورة التي ظهر عليها العذريون مع حبيباتهم...!

حاولت أن أبحث عن الحبّ في بيئة أخرى، في "أنشودة المطر" و"الخيط المشدود إلى شجرة السرو" و "الحب في زمن الكوليرا" وفي رسائل ماجدولين إلى استيفن واستغاثات الأخير للأولى...! وفي قصة تلك السويديّة العذراء التي أحبها ذلك الرجل العربي، وبحثْتُ في قصة روميو وجولييت، وعنترة وعبلة في مسرحيات أحمد شوقي، وغيرها من النصوص التي أتخمت بالحديث عن الحبّ والوله.

بعد كل هذه القراءات لا بدّ لي أن أخرج بنتيجة تزيل الشكّ عني في أمر "الحبّ" فاكتشفْتُ أنّ الحبّ الحقيقي قدْ ماتَ ولم يعدْ له

وجود، وأنّ هذا الحبّ المبثوث في الأسواق وفي جنبات الشوارع وأزقة المدن وساحات الجامعات، إنما هو نسخة مزوّرة لأسطورة ماتت منذ القِدَم. وأنّ الحبّ المتداول هذه الأيام لم يكن مبتغى الناس، بل هو مطيّة لمآربَ أُخَرَ تتمثل في الإشباع الجسدي أو تحصيل المنافع أو الفوائد...! هذا يعني أنّ الحبّ في أصله إشباع روحيّ يفرّخ الخلود....! وأيُّنَا في هذا الزمن مَنْ يفرّخ ويخلد...؟

تقول إحداهنّ: سَأعيش أنا وحبيبي "زوجَ المستقبل" بعيدَيْن عن صخب الحياة وضوضائها، سنتحدّى كلّ الظروف وكلّ التحدّيات وكلّ الجسور والعنابر، وسَنختزل المسافات الشاسعة بكلمة "أحبك" مِنْ كلينا، نردم بها هوّة كبيرة مِنَ الخلافات والمثبّطات والشوارع والطرقات...!

قُلتُ في نفسي: يا لها مِنْ حالمة. أحدٌ منّا يعيش في هذا العالَم لا يتحدّى أن يستريحَ بعد عناء عمَلٍ في بيته حتى يدخلَ على "الفيس بوك" فما بالك بتحدٍ أمام أوّل شيْءٍ يواجهه؛ القَدَر...!؟

إنْ أحدٌ منّا لم يكن بمكنته أنْ يَخْدمَ نفسَه بنفسِه فكيف له أن يذيع على أسماع "محبوبته" أشياءَ سينفّذها إذا ما ظفر بها زوجةً و "وليفة"...!؟

ما هذا الحُمْقُ؟ ما هذا الغَباء...؟

تُكْمِلُ أحلامها: سَنفرش الأرض بعبير حبّنا، وسنبني به أحلامنا التي طالت، وسنُثْبِتُ للعالَم المتربّص بنا والوشاة الذين يرمقوننا بأبصارهم، وحتى للذين نصحونا وكانوا لنا "نُذُرًا"....!

تخيّلْتُ الموَقِف. هي تحكي أحلامها. وأنا أستمع لها ولأحلامها. سأدخل حبيبها شريكاً لنا في اللعبة، ماذا سَيقول لو سمع "ثرثرتها"...؟!

أظنّ –وبعض الظنّ ليس بإثْمٍ- أنّ في داخله حديثَ ساخرٍ، وفمًا يقهقه بملء كَذِبه...! سَيقول: أنا....! ويطلق ضحكة مدوّية في الهواء...! أنا..!

أنا وأنت سنتحدّى...!؟ نتحدّى مَنْ....؟ الحب!؟ أنا أحبّك..!

هي لا تعرف شيئًا عن ضميره المستتر في داخله.

هي تعرف عنه أنه يحبها بملء أدبه وأخلاقه، يعطف عليها ويحدب، يرأف بها وعليها يتحنّن، يسهر على راحتها ويفديها بنفسه وماله، يكون دمعة في عينيها.

هو يعرف أنه كاذب، ويعرف أنها ضحيّة، ويعرف أنْ لا وجودَ للحبّ، ويعرف أنها تصدّقه "بحبّ مرقّع" ويعرف أنه لا يعرف سوى المخاتلات والزيف الطويل...!

هي تنام على "أحبك" وتستيقظ على "أفتقدك"...!

هو ينام على ألف مكالمة، ويستيقظ على ألف "صباح الخيبة" من ألف جهة واهمة...!

تركْتُ أحلامها حينًا مِنَ الدهر. أنا حذّرْتها وأسديْتُ لها نصحي أنْ لا حبّ بعد اليومَ ولا وفاء....! أضمرتْ سخريّةً منْ كلامي وحكمتي "غير الناضجة"... مرت الأيّام تترى. ومرّ حبيبها كأنْ لم يكن بينه وبينها مودّة...! هي قدّمت له كلّ أشياءها النبيلة وأولها "قلبها" وهو قدّم لها كلّ أشياءَه المرواغة وأولها "لسانه" فرضخ قلبها للسانه واستكن...!

وأنا بينهما سادرٌ...! أوّلُ مَنْ هوجم من قبلُ ومِنْ بعدُ.. لم تصدّقني في الأولى ولم تكذّبْني في الثانية. هي بعد أن كُشِفَ الغطاءُ كأنها "حقدتْ" عليّ وعلى قايبلَ مِن قبلي وكل جنس "آدم" وكأنهنّ بنات "حوّاء" بريئات....! كان عليها أن تستمع لنصحي قبل أن يحدث الذي حدث...! ولكنها جعلت أصابعها في آذانها...!

هي قبل الحادثة أحبتْ كل رجال العالم لأنهم مختزلون في "حبيبها" صاحب الأمجاد والأوسمة الرفيعة.! وهي نَفْسُها كرهت كلّ رجال العالم؛ لأنهم نسخة طبق الأصل لـ "حبيبها" صاحب التكاذيب...!

هي تحب الرجل. من قبل

وهي كرهت الرجل. من بعد.....!

كرهت الرجال لأن قابيلَ قتل هابيل من غيرته عليه...! تكره كل بني آدم من أجلِ رجل "خائن". من أجلِ رجلٍ أوهمها بالحياة الطيبة والعيش الغَضِر...! ولم تعلم تلك المسكينة أنْ لا وجودَ للحبّ بهذا التصوّر الذي تفكّر به...! إنما مصلحة طاغية وبدائل في "الاحتياط" إن أخفق بديل تقدّم آخر...!

قلتُ لكم منذ البَدْء إني لا أجيد هذا الفنّ. الاتكاء على الرموز مع كثرةِ اجتهادي وبحثي الدائب..!

أحبّ المباشَرة والكلام الذي لا يحتاج إلا إلى تأويلٍ واحدٍ يفهمه الجميع دون أن يفهم كلّ شخصٍ منهم فهمًا لا يفهمه شخصٌ آخَرُ...!

فمثلاً عندما يعدك أحدهم أنه سيبقى معك حتى آخر "نَفَسٍ" فيه، هذا يعني أنّ الموت هو البرزخ الوحيد بينكما...! لا تأويلَ لهذا العهد إلا أنه سيظلّ يلازمك حتى يفرّق بينكما ما يفرّق الجماعات ويهدم اللذات...!

لكنْ قد يحدث إن ذهبتُ في مَذْهَبِ اللامباشرة والكنايات أن أخرج من "آخر نَفَس" بتأويلات كثيرة وليس تأويلاً واحدًا...! وبذلك

يضيع حقّي مثلاً إذا لم يَمُتْ مَنْ عاهدني ومع ذلك فارقني...!

فمن هذه التأويلات أنّي سأبقى معك ما لم تحل ظروف تبعدني عنك. أو مثلاً ما دمتَ طيبًا معي. أو مثلاً ما دمْتَ مهتمّاً بي، أو تجدّد نفسي بعلاقة أخرى بعد انقطاع نفَسي مِنْكَ...!

فلذلك المباشَرة في الخطاب الموجّه مني أو الموجّه لي تحفظ الحقوق ولا تحتاج إلى "لسانيّ" ماهر، أو "مؤوّل" ينتصف للمظلوم وينتصر له...!

لذلك لو تلاحظون نيّتي مِنَ الكتابة وهي نيّة في تجربة هذا الضرب من الخطاب، ولكنّي بدأت متذمرًا منه ثمّ محاولاً الخوض فيه وكانت القصة حاضرة في ذهني "قصة حبيبين" لو تذكرون، تقاسما بالله ليكونَنّ الأوّل منهما للآخَر ما دامت السماوات والأرض..! والحبكة هي الاتكاء على الرموز، ولو تذكرون نقّبْتُ عن أوّل حبّ حتى أجعله مرجعًا لي أقارنه بغيره من القصص، ورأيت أنّ أول قصة حبّ هي حبّ "عشتار" الفَنِدَة لـ "تموز" الذي هبطت به إلى سابع أرضين...! أهذا حب؟ تساءلتُ حينها .!؟

ثمّ عدت إلى عهدي الأصيل وهو المباشرة في الكلام والحديث...! لعلّي أحقّق ما لم يحققه الآخرون. على الأقل هدفٌ ذاتيّ..!

أ. محمد حمدان الرقب

❋ ❋ ❋

لقد سئم تكاليف الحياة وخارت قوّته وبان ضعفه:

الأمر أشبه بأن تكون بين جمع من الناس ثمّ تصبح في حاجة إلى البكاء فتعتزلهم لثوانٍ. تودّ لو تصرخ فيها باكيًا، تصرخ بأعلى صوت مُمكن، وتبكي ثم تمسح دمعك وتعدّل هندامك وتعود مُبتسمًا كأنّ شيئًا لم يكن. تنسلخ من حقيقتك إلى اصطناع شخصيّة لا يظهر فيها حُزنك وآلامك وهشاشتك وأنّاتك، لكن لن يلاحظ أيّ أحد ما انكسر في داخلك، ولا حتى أنت. وبعدها ستتذكّر لحظة أنّك بكيت وتبكي عُمرًا بأكمله. ستشعر حينها بحرارة دمعك في قلبك عوضًا أن يكون تأثيره على خدّيك. تشعر أنّك عالق في نفسك وكأنّك شخص داخل شخص آخر، لن يفهم حالتك المعقّدة هذه أحد ولن تتجرأ أنت على محاولة شرحها لأحد، تودّ لو أنّ بوسعك الفرار منك إلى اللاشيء إلى التلاشي للأبد. (مُقتبس).

تودّ لو أنّك تستطيع:

- لملمة كلّ ذكرياتك السيّئة، المؤلمة، وتُلقي بها في عرض البحر أو تنثرها في مهبّ الريح، أو تزجّ بها في حفرة عميقة وتهلّ فوقها التراب، هكذا تتلاشى وتختفي بلا عودة.

- الهرب بعيداً من كلّ ما يكدّرك ويُقلقك، وكلّ ما يوجعك، من أتعابك ومسؤولياتك وذكرياتك وأفكارك من مخاوفك، صمتك وأنين روحك ونفسك، الهرب من أحزانك وأوجاعك ومآسيك وجراحاتك، الهرب إلى حيث اللاأحد اللاشيء ومن كلّ شيء، بعيداً عن كلّ هذا الجحيم المُحيط بك، حيث الفراغ، حيث الراحة والأمن والأمان، حيث لا يجدك ولا يراك أحد.

- قلع الأحزان المتجذّرة، والمتعشّشة في أعماقك، المتشبّثة بأركان روحك، القابعة والمستوطنة في قلبك البائس وجسدك الهزيل.

- غمض عينيك مدّة طويلة، وتنغمس في داخلك، كأنّك تريد الاختفاء والانزواء بعيداً عن كلّ هذا الضجيج المُحيط بك وكلّ الأتعاب الملتفّة حولك.

- إطفاء جحيم مشتعل ومستعر في داخلك يأكل روحك ويُحرق رغبتك ولهفتك في الحياة، يطمس معالم الحياة في وجهك، ويُحرق كلّ ما تبقى فيك.

- تودّ لو أنّ ذكرياتك كُلّها تتلاشى، أحزانك وأوجاعك تذهب بلا عودة ولا رجعة، فقط تُريد الانزواء وحيدًا، البكاء وحيدًا، الصراخ وحيدًا بأعلى صوت ممكن، البقاء وحيدًا عن منأى من الجميع.

- تودّ لو باستطاعتك الخلاص من الثقل الجاثم كالطود العظيم على صدرك، ثُقلٌ يضيق أنفاسك ويُكسر أضلاعك ويُحطم كلّ شيء.

- تودّ لو باستطاعتك قلع قلبك من أحشائه وتُلقي به في عرض البحر بأحزانه وغصّاته وأوجاعه وأنّاته وجراحه وقهره وآهاته.

-تودّ لو أنّك كائن لا وزن له ولا أثر، أو أنّك صخرة صمّاء لا تشعر. لا تتأذّى بضربات الأيام وصفعات السنين، لا تكترث لفاجعة ولا يضيرها غياب، تودّ لو أنّك لم تكن.

-تودّ لو باستطاعتك النّوم قبل مجيء الليل، وقبل أن يُسدل ستائر الحنين والذكريات، قبل أن يبان ضعفك، تودّ لو أن ينتهي كلّ هذا:

أحدّقُ في الفراغ طويلًا، أُكلّم سقف الغرفة وأُجيب عنها، أرسمُ ملامح ومشاعر الوجه على الجدران، أوبّخ نفسي وأشتمها بأقسى الألفاظ وأغلظها، أتذكّر هزائمي وأسرد شريط الماضي، أُلقي

كلمات للغائب وأقول: أرتّب مئات الكلمات في رأسي من أجلك، أتخيّل شكل اللقاء إذا التقينا، أرسم ملامحك على جدران الذّاكرة وأسوار القلب، أُقلّب صورك الواحدة تلو الأخرى، وأحضنها عندما أفرغ من ذلك، أتأمّلُ عينيك ليل نهار، صُبح مَساء، في كلّ دقيقة، أشتمُّ بقايا عُطرك على وسادتي، أُطيل الاستنشاق كما لو أنّك تستنشق الهواء بعد كتمان أنفاسك مُدّة طويلة، أتخيّلك، أحلم بك كلّ الليل، أراك في الأحلام، أراك في كلّ الوجوه، طيفك يُلاحقني أينما حللت، أخلق مواقفًا بيننا، أُطيل الوقت الّذي يجمعنا حتّى ولو كان هذا مجرّد خيال، أفعل كلّ هذا في مُخيّلتي، إنّما في الحقيقة أنا صامت لا أتحدّث ولا أبادر، ولا أفعل أيّ شيء من هذا كلّه.

آآآه لو ينتهي كلّ هذا

تودّ لو:

تمرّ عليك لحظات عصيبة (شديدة السواد) تصاب فيها بضعف حاد واكتئاب مزمن، وقلقٌ يُرافقك أينما حللت ورحلت وارتحلت، تشعر فيها بثقل جاثٍ على صدرك كالطود العظيم، تشعر بأنّك منهار تمامًا وأوشكت على السقوط، تشعر بأنّك كائن لا وزن له

ولا أثر، تشعر بأنّ أحدًا يلف حبلًا على رقبتك ويُضيّق عليك الخناق لحظة بلحظة، تشعر أنّ لعنة أصابتك، وداءٌ لا دواء له استوطن جسدك، تودّ حينها لو بإمكانك تجاوز تلك اللحظات بأسرع وقت ممكن، لو أنّك لم تكن، لو أنّ الزمن توقّف قبل حدوثها، تتمنّى فيها أن تفقد ذاكرتك، أو تفقد وعيك حتّى تخفّ حدّتها على قلبك المثقل، تتمنّى لو أنّ الأرض تنشق وتبلعك، أو تودّ الهرب من نفسك، وتتمنى لو باستطاعتك خلع قلبك من أحشائه وتلقيه في عرض الطريق. وتودّ لو أنّ حياتك تتوقف حتى تذهب تلك الأيام بقسوتها وشدتها.

تودّ لو.!

ستدرك لاحقًا:

- بعد انغماسك لفترة طويلة في الحزن وبكائك المرير لساعات طويلة وأيام عديدة أنّه لا أحد يستحقّ حزنك وبكاءك.

- بعد تعرّضك لخيبات قاسية، متتالية ونكسات من الّذين ظننت أنّهم أحبّاؤك وأعوانك أنّه لا أحد يستحقّ الحبّ سوى نفسك، وأنّ نفسك أولى بكلّ هذا الحبّ والاهتمام، وستدرك عمق هذه الجملة وصدقها "كن لنفسك كلّ شيء".

- بعد أن تُعطي كامل قلبك لشخص ما ويُجهز عليه بكامل قوّته وشراسته ولامبالاته ويحوّله إلى أشلاء ممزّقة، ونارٍ مستعرة، أنّه لا أحد يستحقّ قلبك، وأنّه لا ثمّ وفاء ولا تضحية ولا صدق في الحبّ ولا ما يحزنون، وحينها ستعضّ أصابعك العشر ندمًا وحسرة.

- أنّه لا أحد يشعر بك، ولا أحد يهتمّ لحزنك، ولا لبكائك في منتصف الليل، ولا أحد سيبقى معك، ستكتشف أنّك وحيد تمامًا ومنسيّ.

- كم أنّ الحبّ شيء ساذج ومقرف ومضيعة للوقت والنفس. أنّ الحبّ قاتل صامت، موتٌ بطيء. انتحارٌ بذاته.

ستحبّ بكلّ ما أوتيت من حُبّ، بعدها ستتلاشى الأحاديث تدريجيًا، ثمّ تنتهي وتتوقّف الكلمات، يعمّ البرود والسكون، وفجأة ينتهي كلّ شيء. (يبدأ الحبّ بقلبين وينتهي بواحد).

- ستدرك حجم الخطأ الذي ارتكبته في حقّ قلبك الطيّب حينما أعطيته دفعة واحدة لمن لا يستحقّ، ومن ثم ستبدأ رحلة الندم التي ستلازمك حتّى في منامك. (ستذوق مرارة حماقاتك، سينهشك الندم ليلًا، ستصفعك ذكرياتك ويُجهز عليك الحنين، ستعضّ أصابعك العشر ندمًا).

- (بعد علاقة حبّ فاشلة) ستدركُ تمامًا لماذا سُميت عقارب الساعة (بالعقارب) حينما ينتصفُ الليل ويشتدُ سواده ويكشّر عن أنيابه، ويغيرُ عليك الحنين الغاشم من كلّ حدب وصوب ويطوّقك، وتُجن ذاكرتك، وتصابُ بالأرقِ والقلق.

- ستدرك حينما تثقل الهموم كاهلك وتضيق عليك الدنيا بما رحبت وتشعر بأنّ أثقالًا هائلة جاثية على صدرك، أنّ مهمتك في الحياة هي الشقاء والعناء وأنّه كُتب عليك المقاومة فقط، مقاومة جيش من الذكريات زاحف إليك كلّ ليلة، مقاومة الحنين الغائر، مقاومة الماضي بأسره.

ستظلّ تقاوم وتقاوم حتى تسحقك وترديك الحياة صريعًا.

- (بسبب الإفراط في معاملة البشر بكامل طيبتك ونيّتك الحسنة) ستدرك أنّ قلبك الطيّب الليّن هو سبب لأغلب مشاكلك وشقائك في الحياة، كان يجب عليك أن تحمل قلبًا فولاذيًا، صلبًا.

- (للصديق الّذي أحببته بكامل ما أملك من حبّ ثم جازاني جزاء سنمّار وقابل بالإحسان الإساءة):

ستدرك بعد فوات الأوان (ويوم لا ينفع الندم) أنني أحببتك بطريقة لم يستوعبها قلبك (لا طاقة له لكلّ هذا الحب) ولا يمكن لأحد أن يحبّها لك، وأنّه لا حد أحنَّ عليك مثل قلبي، وستدرك حينما تُحصي خساراتك الواحدة تلو الأخرى أنّني الخسارة الفادحة التي لا يمكن تعويضها. (سأكون في مقدّمة خساراتك).

- ستدرك بعد أن تصاب بشدّة، محنة ثقيلة، أنّك وحيد تمامًا وكلّ الجدران التي اتّكأت عليها وركنت بها مائلة وآيلة للسقوط ولا تقدر على حمل نفسها، ستدرك عمق هذا المثل: (لا تتفاخر بأنّ لديك أصدقاء بعدد شعر رأسك، عند الشدائد ستكتشف أنّك أصلع)، فعلًا أصدقاؤك الّذين توهمت أنّ أعدادهم كعدد

خصلات شعرك ستدرك وقت الشدّة والحاجة أنّك أصلع وبلا نصف شعرة.

(أصدقاء مزيّفون).

- ستدرك في وقتٍ لاحق أنّ أغلب الانطوائيين الانزوائيين القابعين في زوايا الوحدة والمتشائمين من الحياة الذين سئموا تكاليفها كانوا أكثر النّاس سعادة وشغفاً إلى أن تمّ ضربهم وطعنهم في مقتل.

- حينما ترى هؤلاء الذين وضعتهم في قائمة الأصدقاء وهم يتساقطون ويتلاشون الواحد تلو الآخر عند أوّل محكّ. حينها ستدرك كم أنت أحمق وساذج (وعلى نيّاتك).

- ستدرك لاحقاً كم أنتَ أحمق.!

قبل خاطرة ألم الفراق، أبوح لك :

إنّني أخبّئ الليالي المبهجة، واللحظات الجميلة، والذكريات الممزوجة بكلّ ألوان الفرح والسرور معك تحت وسادتي، داخل ذاكرتي، في جيوب الزمان، وخبايا وحنايا الذّاكرة، أدفنُ ابتسامتك وأحفظ تفاصيلك في أعماق القلب وسراديبه، أحتفظُ ببقايا عُطرك، أشتمّه بشراهة كلّ ليلة، أقبضُ بيدي بكلّ قسوة على بقايا دفء يدك، أظلّ محدّقًا في صورك حتّى تخلد بداخل عيني، حتّى يغلبني النعاس، أحاولُ أن أجمع بكلّ هذا أوراقًا رابحة ألقي بها أمام كلّ ليلة سيئة، قاسية تريد الإطاحة بي. والنيل منّي.

أُريدك أن تعلم:

أنّ الأيّام كلّها أصبحت قاسية لا تُحتمل وتختلط بالسواد وكلّ ما هو مؤذٍ وسيئ، إنّ الأيام تسير ببطء مُقيت، فوق مواجعي وآلامي، إنّها لا تمضي بشكلٍ جيّد مُنذ أن قررت الرحيل وفارقتني، حاولتُ نسيانك بشتّى الطرق ولم أستطع، زرعتُ اللامبالاة في القلبِ، عودتُ نفسي على القسوةِ والصلابة والقلب على ألّا يشتاق، ابتعدتُ عن أيّ شيء قد يخدش مشاعري، كلّ هذا على أنْ أنسى، لا أنسى.

إنّي أختلطُ بالكثير مُرغمًا لعلّي أنساك، لكن ملامحك كانت ترتسم في وجوه كلّ الذين أراهم، إنّي أراك في كلّ الوجوه، وطيفك يُلاحقني أينمّا ولّيتُ.

أُريدك أن تعلمَ:

أنّي لا زلتُ أحفظك وأتشبّث بجميع ذكرياتك وأضعها في حقيبة ذاكرتي، إنّي أعرفك أكثر من كلّ الّذين بقوا معك، وأفهمك جيدًا، وأحفظ روحك، أعرفها مثلما أعرف روحي تمامًا، أعرف بنفسك، بمآسيك، بعبراتك، بآلامك، بأنّاتك وأيّامك الصعبة والمؤذية، بكلّ ما تخفيه عن الجميع، ولا يخفى عنّي لأنّي أعرفك أكثر من أيّ شيء آخر، لا أملك خيار أن أراك وأواسيك بكلماتي، بعناقي لك، لكن يواسيك قلبي وأتمنّى لو تشعر بهذا.

أُريدك أن تعلم:

أن وجهك يُخيّل لي وسط كلّ شيء، ليل نهار، صُبح مساء، في يقظتي ونومي، تحت أيّ ظرف، فوق أيّ زمان، في المقهى، في السيارة، على سريري، وسط أصدقائي، في مكان عملي، أمام المارّة، في اللحظات الصامتة، وتلك التي تملؤها الضجّة، وفي الليالي الهادئة والقاسية، في حُزني وفرحي، أوقات فراغي وانشغالي، إنّكِ

لا تُدرك تمامًا ماذا يعني أن يحمل شخص ما أحدًا بداخله، إنّك بداخلي أينما اتجهت، ورحلت، وارتحلت.

أُريدك أن تعلم:

أنّني أبذل جهدًا هائلًا لنسيانك فأفشل، أتحدّث مع القلب كما يُحدّث شخصٌ شخصًا أقنعه أنّك لن تعود أبدًا دون جدوى، أحاولُ الانشغال عنك فأفشل، أتجاهل كلّ الأحاديث التي تأتي بك فأجدني أحدّق في الفراغ وأتخيّلك، أهرب منك للأغنيات فأجدك هناك، أجدك في كلّ مكان، أدّعي لامُبالاتي بك وأنا أتلصّص خلف كلّ شيء يعود إليك، كلّما قلت بأنّي أكرهك، أجدني أحبّك دون توقّف.

أريدك أن تعلم:

أنّي أتذكّرك في خضمّ الهموم والأحزان، في أشدّ حالتي قلقًا وألمًا، في أصعب الأوقات وأقساها، في قمّة البؤس والصعاب، وفي ذروة العسر والمآزق.

ألم الفراق يقضي على الإنسان تمامًا مثلما يقضي الليل على النهار:

الفراق يقضم جدار القلب، يهدم أركان الروح، يؤرق المضجع،

ويشتّت العقل، ويُنهك الجسد، ويُنهي ويُطفئ الرّغبة في الاستمرار في العيش، يعيث خرابًا في ملامح الوجه، إنّ لحظة الفراق هي من أصعب اللحظات التي قد تمرّ على الإنسان وأقساها، وأشدّ مرارة وتأثيرًا عليه، لا شيء أشدّ إيلامًا ووجعًا وقسوة وفظاعة من لحظة الفراق، إنّ هذه اللحظة البائسة، السيّئة، تنتهك داخلك وتؤرق مضجعك، وتُشعل جحيمًا في أعماقك، وتبعثر كيانك، وتقبض قلبك تشعر به منكمشًا بصدرك يركض النبض فيه محطّمًا كلّ الأرقام القياسية، وتُحدث خرابًا هائلًا في داخلك، تودّ حينها لو أنّك لم تكن، لو أنّ الأرض تنشقّ وتبلعك، هكذا تبتلعك وتختفي بلا رجعة ولا تُعيدك أبدًا. أو أنّك كائن لا وزن له ولا أثر، أو ربّما شيء جامد لا يتأثّر ولا يشعر ولا يحسّ.

تودّ لو أنّك لم تكن، أو أنّ الزمن توقّف قبل حدوث الفراق، أو أنّك فارقت الحياة قبل وقوعه، تودّ لحظتها لو بإمكانك غمض عينيك هكذا وينتهي كل شيء.

حينما تفقد حبيب لك بينك وبينه حكايات كثيرة:

تدريجيًا ستدخل في دائرة اكتئاب حادّ، مزمن، حيث لا يمكنك الخروج منها، اكتئاب حادّ بشع، ويسقط قلبك في حالة حزن

رهيب سقطة موجعة، أيامك كلّها ستتحوّل إلى كوابيس، كلّ الأشياء التي ستراها ستختلط بالسواد العاتم، ستتوقف الأحداث السعيدة عن لمس قلبك البائس، مع الوقت سيصبح جسدك كثوب رثّ مهترئ ويجفّ دمك وينطفئ عقلك (تمامًا مثلما يجفّ زيت المصباح فيبهت نوره تدريجيًا).

ستفقد قدرتك تدريجيًا على الحديث بلا تأتأة بلا تلعثم، ستنسى كيف تبتسم دون أن يظهر فمك بصورة سخيفة، مُضحكة، ستفقد القدرة على الضحك، ستصبح تقدّس العزلة والانطواء كثيرًا، وستعاني من خراب رهيب وجحيم مستعر في داخلك، القلق سيلازمك أينما ذهبت، وشبح الحنين سيرافقك أينما حللت وارتحلت، أنياب الذكريات ستنهش جسدك كلّ ليلة، ستعاني من ثقلٍ جاثٍ على صدرك الهشّ، وستفقد قدرتك على الاحتمال والمقاومة.

سيفعل الحنين بك الأفاعيل، والشوق أفاعيله، ومن ثمّ تبدأ الذكريات بمهاجمتك من كل حدب وصوب كلّ ليلة، لدغات الاشتياق مؤلمة وصفعاته أيضًا، الأحزان ستقسم ظهرك، وتفجّر في داخلك براكين وحمم تجعلك في جحيم قاتل، تلمّ شمل

أحزانك من كلّ حدبٍ وصوب، تؤرق مضجعك وتجفّ دمعك وتقتل شهيّتك تجاه كل شيء.

ستموت في الليلة ألف ميتة، ستموت وأنت على قيد الحياة. (مجرّد شهيق وزفير فقط).

لا ثمّ غربة أشدّ قلقًا وألمًا ومرارة وعذابًا مثل غربة النفس، ولا ثمّ بحث يُرهق ويُهلك ويوجع مثل البحث عن الذات:

وتسأل نفسك الضائعة أسئلة عجيبة غريبة كلّما مررت من جانب مرآة غرفتك، حينما تستوقفك ملامحك الباهتة ووجهك الشاحب، حينما تُذهلك تجاعيد الزمان على وجهك، حينما تستوقفك عينيك البائستين الذابلتين المحاطتين بسواد داكن، المليئة بأوجاع مكبوتة وآلام مكدّسة، المفعمة بدموع ساخنة تُلهب خدّيك كل ليلة، وبلهجة ملؤها الغرابة والحسرة والحزن في آن واحد وبدمعة سقطت على حين غرّة وبدون سابق إنذار، أحدثت خطًا، ممرًّا في وجهك البائس الباهت كممرّ جحيم صنعه بركان ثائر مُلتهب، سقطت دمعتك ثمّ سقطت أنت جاثيًا على ركبتيك أمام المرآة تتأمّل وتتمّعن بذهول رهيب ملامحك الغريبة المخيفة، تتمعّن الشقاء المرسوم على وجهك وآثار صفعات الزمان على خدّك، كأنّ المرآة كلّما مررت من جانبها تصرخ بصوتٍ عالٍ قصدًا وغاية في قهرك وإشعال جحيم آخر في داخلك: تووقف، تووقف، تأمّل نفسك جيدًا، تأمّل تجاعيد الزمن والشقاء في وجهك، تأمّل كيف تبدو ضعيفًا هزيلًا مهلهل الجسد، تووقف، وتتوقف مجبرًا دون إدراك منك أو وعي، هكذا فجأة

تتوقف وتجثو على ركبتيك تتمعّن نفسك الغريبة بذهول رهيب وحسرة قاتلة تسألها: من أنت؟ ما هذا؟ يا إلهي، ما هذا؟ أنت من أنت؟؟ من فعل بك كلّ هذا؟؟ من خار قواك واختلّ توازنك؟؟ من أشعل كلّ هذا الجحيم في داخلك؟؟ من عبث بملامح وجهك؟؟ لمَ كلّ هذا الحزن واليأس ظاهر على وجهك؟؟

(إنّ لمرآتك قدرة خارقة في كشف حالة الإنسان من الداخل)

ستبقى غريبًا عن ذاتك، باحثًا عن نفسك، فلا أدري إن كان للمرآة قدرة على استعادة إليك الضائع منك؟

يحدث:

يحدث أن تتحوّل إلى كائن هلامي غريب عجيب الأطوار، كائن آخر تمامًا، مُختلف:

تنطفئ الرغبة لديك في الشعُور والإحساس بأيّ شيء، هكذا فجأة تجِد نفسك متوقفًا عن أي نشاط، تتلاشى كلّ الأشياء التي كنت ترغب بها وتحلم بتحقيقها تدريجيًا دون اكتراث دون الشعور بالذنب دون أيّ اهتمام، ستتوقف سعيك نحو أهدافك وتطلّعاتك دون أن يُقلقك المشهد ودون أدنى اكتراث، كلّ الأشياء من حولك تفقد قيمتها وأهميتها ويُخيّل لك أنّ الحياة توقفت عن النبض، تفقد لذّة الحياة ولا تعود تستسيغها، تُصبح لديك بلا معنى ولا تُعيرها أيّ اهتمام، تُلازم نفسك هُدوء مخيف وصمت مُطبق، تصاب بنُفور مُفرط وغريب اتجاه الجميع، لا تُريد أحدًا، ولا تثق بأحد، وما عدت تُطيق الجلوس مع أحد، ولا تتألم ولا يضيرك فقدان الآخرين ورحيل قريب أو حبيب أو عزيز، تُصاب بتبلّد رهيب وأعلى درجات البرود، ولا يُثير غضبك أيّ شيء. تتعرّض لأمور قاسية ومؤلمة ولا تتألّم أبدًا، تصاب بما يدعو إلى الانغماس في الحزن ولا تحزن أبدًا، تتوقف عن الحزن ولم تعد تكترث بفاجعة أو كارثة تصيبك، تستفزّ مواقف كثيرة دموعك

ولا تنزل، يُصاب القلب ما يدعو لجرحه وكسره، فلا ينجرح ولا ينكسر، يعترف لك شخص بحبّه العظيم لك ولا تهتم ولا تُبالي، تُحيط بك الغموم من كلّ جانب ولا تُغم، ما عدتَ تستسيغ ولا تستطعم أيّ شيء، تُصبح كصخرة صمّاء لا تشعر، أو كحجر صوّان لا يلين، (تتبلّد مشاعرك) تفقد رغبتك ولهفتك وشهيّتك اتجاه كلّ شيء، لا تلبث وتُصاب باكتئاب مزمن، وانزواء مقيت، تسقط في دائرة الوحدة التي لا يمكن لأحد انتزاعك أو انتشالك منها، ثمّ تشعر بتفاهة وسذاجة الأحداث حولك، لا يضيرك شيء البتّة، لا تهتم ..

ثم ستعاني وتُعاني وتُعاني؛ لأنّك أدركتَ جيّدًا بأنّك ما زلت موجودًا، ولكنّك مجرّد من كلّ ما يؤكد بأنّك على قيد الحياة.

جسد بلا روح، بلا شيء، بلا حياة، بلا رغبة، بلا شعور، مجرّد شهيق وزفير فقط.

فخامة الليل والحنين والذكريات:

أحيانًا مهنتك ما بعد منتصف الليل هي المقاومة فقط، مقاومة جيش غفير من الذكريات زاحف إليك، وطوفان من الحنين قادم أيضًا، ومقاومة الماضي بأسره، مقاومة أشباح الحنين المُرعبة.

أنت مهزوم، أليس كذلك؟

ما إن تستلقي على سريرك ليلًا بعد يومٍ شاقّ وشائك، مفعم بالمتاعب والضجر؛ مليء بكلّ ما هو سيئ، ومعكّر للمزاج، بعد عملٍ ذو روتين مملّ جدًا ورتابة قاتلة، (تقابل الأشخاص أنفسهم، الحمقى ذاتهم، تذهب إلى المكان ذاته، وتنطلق في الوقت نفسه، حتّى الطريق التي تسلكه نفسه لا يتغيّر، الأحاديث كما هي، لا شيء يتغيّر)، تبدأ محاولاتك الفاشلة والبائسة في النوم؛ لتريح عناء جسدك المثقل بالمتاعب الهزيل المنهك حدّ الهلاك حد عدم الاحتمال، والقدرة على التحمّل، (جسدٌ لا تقوى على حمله، هزيل لا يقوى على مصارعة طفل)؛ لتريح رأسك المليء بالضجيج الّذي يأكل رأسك، ولكن ما إن تشرع في النوم وإذ يتراءى أمام عينيك المنهكتين أشباح كثيرة، مخيفة ومرعبة ومستوحشة ينظرون إليك نظرة مليئة بالشرّ، نظرات مفزعة مُرعبة، ويتراءى لك أنّ هذه الأشباح المخيفة تقول لك: لقد اشتقنا إليك، انتظرناك

طويلًا، إلى أين؟؟ لِمَ كلّ هذه العجلة؟؟، مهلًا لم نبدأ في تعذيبك بعد، لم نمارس طقوس الوجع على جسدك، إلى أين؟ تمهّل. ومن ثمّ تبدأ طقوس التعذيب على جسدك الهزيل، تبدأ معاركك القاسية والملتهبة مع الليل ورحلتك مع وحشيّة الحنين والذكريات، يقطّعك الحنين والذكريات إربًا إربًا، يقطّعك أشلاء صغيرة. تلتهمك أنياب الماضي، وتصفعك أسواط الذكريات.

الشبح الأكثر فتكًا وبطشًا ورعبًا وضراوة هو شبح الحنين الّذي يقتات وينهش القلوب والأحشاء، (يهيمن على قلبك وينهش روحك ببطء مقيت وما تبقى من جسدك) يهاجمك من كل حدب وصوب ومن كل زاوية، ولا يوجد في قلبه ذرة عطف ولا رحمة ولا شفقة أبدًا. لا يكلّ ولا يهدأ. لا يكفّ عن تعذيبك طوال الليل. (لا خلاص من الحنين البتّة، وكلّ محاولاتك للنوم فاشلة، فاشلة، فاشلة.)

لا أدري..

من يوقف هذا الشبح الأسود؟

من يوقف زحفه ليلًا؟

من يوقف بطشه؟، من لها؟

(من يوقف عدوانه الغاشم؟)

يا صديقي:

لا تسلْه لمَ جسدك هزيل، مهلهل، كقطعة قماش بالية مهترئة، كورقة هشّة، لا تسلْه لمَ عيناك تبدوان هكذا، منتفختين، محاطتين بسواد داكن، باهتتين، تميلان أحيانًا إلى زرقة مخيفة ومرعبة، لا تسله لمَ كلّ هذا الحزن ظاهر على وجهك، لم كلّ هذه التجاعيد والخطوط في وجهك كأنهنّ ممرات صنعهنّ بركان ثائر، لا تسلْه فلن يطيق جوابًا.

ولكن سل الحنين (فخامة الحنين، حضرة الحنين، وحش الحنين، رعب الحنين، شبح الحنين، دكتاتورية الحنين، غضب الحنين، كوكائين الحنين، عنفوانية الحنين، بطش الحنين، لامبالاة الحنين، قسوة الحنين، جحيم الحنين، نازيّة الحنين)

سل الحنين يا صديقي، سله.

تركوه يواجه الشنق وحيدًا:

لقد جعلت أشلائي تموت، وقلبي يحترق، ودمعي يسيل ليل نهار، وجسدي يهزل يومًا بعد يوم، دون أن يرّف لقلبك أيّ جفن دون أيّ اكتراث. دون الشعور بالذنب، دون أن يضيرك شيء، دون أدنى رحمة أو شفقة، أشعلت جحيمًا مستعرًا في داخلي لا يُطاق ورحلت، زرعت غصص في القلب ومضيت، هيّجت براكين الشوق في داخلي وذهبت، لقد تركتني لقمة سائغة بين أنياب الليل والحنين، تركتني تحت رحمة الليل والذكريات:

إنّها المرّة الأولى يحتلّني فيه صمت مُخيف ومؤلم، الصمت وحده ولا شيء غيره، إنّهُ لأمر جلل ومحزن ومقلق وكلّ الأشياء السيّئة هو أن تفقد إنسانًا تعوّد قلبك عليه، تفقده برغبته في الابتعاد والنأي عنك هكذا بلا سبب أو عذر يُتيح له ذلك، الأمر أشبه بإقصاء ونفي إنسان خارج بلاده دون المعرفة ما السبب، للمرّة الأولى ألتزم فيها بالصمت والانزواء الطويل، وتنهدات متتالية وتفكير عميق، وقلبٌ يركض النبض فيه بسرعة رهيبة.

إنّني لم أستوعب ما حدث، أمر رحيلك كان أكبر من أن يستوعبه عقلي وقلبي.

منذ رحيلك المفاجئ وأنا أحاول بذهول واستغراب كبيرين أن أستوعب ما حدث، أفتّش عن عُذر مقنع تُهدئ من لوع قلبي، وتُخفّف من نزيف عيني، هكذا فجأة كالبرق تذهب؟ كُلّك تذهب؟ الحبّ كلّه يذهب ويتلاشى دفعة واحدة وبلا تنبيه وبلا سبب؟ دون التهيؤ للرحيل، لا أدري كيف للقلب أن يستوعب ما حدث وكيف أقنعه أنّك ذهبتَ، ذهبت بلا عودة ولا رجوع، لا أدري كيف لك أن تفعل كلّ هذا بقلبي وتتعمد إيذاءه؟ قاسٍ أنت كالحجارة بل أشدّ من ذلك، لا يوجد في قلبك ذرّة عطف أو رحمة.

أتتركني لرياح الذكريات تعصف بي ليل نهار، بين رحمة الليل والحنين؟ قاسٍ أنت، صخرة أنت، منتزع من قلبك الرحمة.

التمسْ لي مئات من الأعذار:

- حين تتحدّث معي وأكون شارد الذهن ولست أدري ما أقول.

- إن صادفتني شاحب الوجه، كاسف اللون، ذابلًا، لا أُطيق المزاحَ ولا الكلام.

- إن صادفتني أهلوس مع نفسي، وكسا الحزن وجهي واحتلّ التعب جسدي.

- إن رأيتني باهت اللون، مهلهل الجسد، ضعيفًا لا يقوى على شيء.

- حينما أجلس ولا أشاركك الكلام.

- إن راسلتني ولم أُجبك أو رددت ببرود.

التمس لي مئات من الأعذار حين تراني بحال غير الحال التي تعتاده، حين أكون أنا لستُ أنا.

قد أكون مُنهكًا مُتعبًا وغير قادر على فعل شيء، قد أكون منشغلًا في المعارك والحروب القاسية التي تُخاض في داخلي، منشغلًا في إطفاء حريقٍ ضخم مستعر في قلبي لا يُبقي ولا يذر، قد أكون في مهمّة البحث عن الذات، أبحثُ عن نفسي الضائعة منذ زمن وألملم شتاتها، قد أكون أقاوم عدوان الليل، وسرب من طيور الحنين

المفترسة، وجيش غفير من الذكريات، أقاوم كلّ تبعات الفراق المؤلمة. أقاوم أحزان الماضي وثُقل الأيام.

التمسْ لي عذرًا إن لم أبتسم في وجهك إن مررت بقربك ولم أرك، قد أكون في عالم آخر أنت لا تعلم عنه شيئًا.

قد لا أكون أنا، التمس لي آلافًا من الأعذار.

حينما يُسدل الليل ستاره الدّاكن:

أحيانًا تكون مهمّتك في النهار هي إخفاء كلّ ما قد يوحي أنّك منهار من الداخل، تُخفي آلامك وأنّاتك وأوجاعك وأحزانك وعبراتك، تُخفي هشاشة قلبك وقلّة حيلتك، تصطنع القوّة والصلابة مع أنّ داخلك يتهاوى ويتحطّم. تصطنع ابتسامة زائفة، تتظاهر، تمنع الدموع من السيلان، تحاول كثيرًا:

ثمّ يأتي الليل كاشفًا ما أخفيته وسترته في النهار.

حينما يأتي الليل:

- تتهاوى قواك الزائفة وتنهار أمام جبروته مستسلمًا مستلقيًا على سريرك.

- تستقبلك الذكريات بالأحضان، بأحضان قاسية، وبشتّى أنواع التفكير، ويستقبلك الحنين بكلّ الأشياء التي مضت.

- تتوسّدك الأحزان والشقاء والتعب، وكلّ ما هو قاسٍ وسيئ.

- يقتحم بلا استئذان وبلا رفق هدوءك وراحتك ومسرّاتك، يعبث في الذّاكرة ويستحضر الحنين، ويوقظ الأوجاع ويُشعل جحيمًا مستعرًا في داخلك، تُصاب بالأرق، والقلق، وأرق يتلوه أرق والليل قاسٍ لا يرّق، كم أنت طويل وقاسٍ على المصابين في قلوبهم أيّها

الليل.

يقتحم مواطن المواجع والأحزان، يقتحم داخلك المحطّم، وجسدك البالي.

- يحتضنك الأرق بكل رحب وسعة: حينما يأتي الليل، سرعان ما تتوسّل عيونك النوم هربًا من سخط الليل، من الهموم، خوفًا من بطش وقسوة الذكريات، قبل أن يفيض بك الاشتياق، قبل أن تستيقظ مواجعك وتمارس طقوسها عليك، قبل أن تهبّ عواصف الحنين القاسية، تحاول النوم بأيّ وسيلة كانت، تراوغ الليل، تراوغ الذّاكرة، تغمض عينيك بقسوة، تحاول منع رأسك من التفكير، من التخيّل من أيّ شيء يجعلك عن منأى من النوم، ولكن كلّ محاولاتك للنوم فاشلة، تتوسّدك كلّ ما هو سيء وقاسٍ، الأحلام الضائعة، الذكريات القاسية، الحنين المشتعل.

- يبدأ قرص الذّاكرة بالدوران سارداً تباعًا كلّ ما في جعبته من ذكريات قديمة، وتفاصيل ماضية، تسرد أحاديث الماضي بشكل يثير الألم والأرق والأوجاع، (شريط الذّاكرة ممتلئة بالتفاصيل المرهقة، وكلّ ما لا نقوى على نسيانها، في جعبتها أشياء مميتة). كل الأشرطة القديمة مصيرها التلف وسلّة المهملات، إلّا شريط الذّاكرة إنّه باقٍ ما بقي صاحبه ولا يتلف أبدًا.

- حينما يأتي الليل ستُدرك تمامًا لماذا سميت عقارب الساعة بالعقارب:

عقارب الساعة تلدغ المصابين بالأرق، أصحاب القلوب الحزينة، الممتلئين بالحنين، وتظل تراقب الساعة تباعًا تتمنّى حينها لو تُسرع في الدوران أو أنّها تدور عكس ما تدور؛ ويعود النهار، تتمنّى لو أنّها توقّفت قبل مجيء الليل، كم تتمنّى أن تتخربط عقارب الساعة ليلًا أن تُسرع في دورانها، وكأنّ العقارب تُصاب بالشلل ليلًا.

عقارب الساعة تسير فوق المواجع والآلام ولا يضيرها أبدًا الصرخات التي تطلقها، صوت العقارب مرعب للغاية وكأنّها تعزف سمفونية مليئة بالحزن على أوتار الماضي بألحان الذّاكرة.

- تبدأ ملامح وجهك بالتغيّر كُليًا، يُظهر عليه كلّ علامات التعب والشقاء، (الأتعاب كلّها تظهر على وجهك) كأنّ وجهك يشيخ ويُصاب بالوهن حينما يأتي الليل، يغدو شاحبًا كاسف اللون، حتّى نبرة صوتك تتغيّر وتصاب بالبحّة والاختناق كأنّ حبلًا يلتفّ حول عنقك. (لا طاقة لك على وحشيّة الليل).

- حينما يأتي الليل تصاب ب:

فرط التفكير والأرق والقلق، سهيان مُفرط، تفكير مشتت ضجّة وصراع داخلي، نوبات هستيرية وبكاء مفاجئة، صداع في الذّاكرة،

داء الحنين ووباء الذكريات وحمى الاشتياق، شيء من الجنون، بحّة في الصوت، رغبة شديدة في الانزواء والانطواء طويلًا، رغبة جارفة في الهرب من ذاتك، الهرب حيث اللاشيء، حيث لا يراك أحد.

- تنهال عليك الذكريات كسيل جارف، تُهاجمك كقطيع وحوش جائعة، مفترسة، تلوح بنفسك يمنة ويسرة علّك تنام؛ هربًا من هذا الجحيم ولا تنام.

- تظن أنّها ليلة هادئة وأنّك بخير، حتى ينتصف وإذ بالحنين ينقضّ عليك كوحش شرس يلتهم ما تبقّى من قلبك بشراهة وضراوة.

- جسده يرتخي شيئًا فشيئًا، يصبح لا يقوى على حمل نفسه، يغدو كثوب ركيك مهلهل، كقطعة قماش مهترئة، كبيت خاوٍ على عروشه، كشجرة ذابلة، كجثّة هامدة.

ينتابُه إحساسٌ عميق أنّه لن ينجو من هذه الفخاخ المنصوبة في طريقه، لن ينجو من قسوة الهموم والأحزان، وغير قادر على تقلّبات الزمان، وفي الوقت ذاته جيوبه خالية من الحلول ولا ثمّة مفرّ.

قلبه يُصاب بحالة اكتئاب مزمن وحزن عميق، حيث تتوقّف الأحداث السعيدة عن لمس قلبه، وكل الأمور من حوله متشقلبة، تائه مشتّت.

الليل موطن البائسين:

إنّ لليل قدرة خارقة في كشف هشاشة القلوب وركاكتها، في استحضار جميع الأحداث القديمة التي ظننت أنّك نسيتها ويعرّيك أمامها، إنّه قادر على جلب الحنين من كل حدب وصوب، والعبث بالمشاعر ونبش أكثر الذّكريات ألمًا وقسوة، إنّ لليل قدرة خارقة بإشعال نيران الحنين في داخلك وبعثرتك بثانية واحدة. إن الليل موطن البؤساء وأكثر الأشخاص جروحًا، موطن المنتظرين والمخذولين والمتعبين، موطن المحمّلين بالذكريات الممتلئين بالحنين، المكدّسين بالأوجاع، موطن من ذاق مرارة الفقد. إنّ الليل طويلٌ على المصابين بالأرق، على من يُعاني، على المصابين في عقر قلوبهم، على المدججين بالذكريات المثقلين بالحنين، إنّ الليل موجع جدًا لقلوب أضناها وأنهكها الألم.

يطوّقك الليل من كلّ جانب، يحاصرك؛ لتبدأ الذّاكرة المحشوّة

بالذّكريات برمي طلقاتها الطّائشة بلا رحمة على جسدك المهلهل، وتخترق قلبك البائس فتدميه.

(وإنّ الحنين ليلا ينهك الجسد ويشل تفكير العقل ويدمي القلب ويستفزّ الدموع ويعيُد شريط الذكريات).

فلا أدري:

كيف لك أن تسلم؟ كيف لك أن تحيا، بكلّ هذه القسوة وكلّ هذا الجحيم؟

كيف لكَ أن تقاوم كلّ هذا الخبث في داخلك؟

كيف؟؟

ما أقبح خيبات الأمل:

إنّك لن تفهم أبدًا ماذا يعني أن يثق بك شخص خائف دائمًا من الخذلان فتخذله. شخصٌ جرّب وجع الخذلان فتخذله، أنت لن تتخيّل ألم الخذلان وقسوته إلّا بعد أن تجرّبه.

(من ذاق مرارة الخذلان سيبقى خائفًا إلى الأبد).

إنك تكره أن تتجرع كأس الخذلان وخيبات الأمل، إنّ الخذلان الّذي يأتيك من شخص وثقت به وجع كبير لا يضاهيه وجع، يترك ندوبًا في القلب لا تشفى وغصّة تظلّ تنخز به، لا أدري، كيف لك أن تتحمّل فكرة أن تقذف بي بعيدًا عنك بعد التعلّق بك، أنّ تجازي الثقة بأشدّ أنواع الخذلان، أن تترك خلفك أكوام من الذكّريات التي لا تستطيع وضعها على قارعة النسيان، ولا تقوى على صفعاتها.

إن الخذلان يجعلك:

- شخصًا قاسٍ لا يلين لا يغفر، لا يثق بأحد. (قاسٍ حتّى على نفسك).
- شخصًا آخر غير الّذي كنت عليه، وتفقد بعضًا منك.
- شخصًا يخاف التعلّق والإدمان بأحد.

- شخصًا منطفئ.

إنّ الخذلان:

- يزرع الخوف بداخلك للأبد.

- يقتل رغبتك وشغفك اتجاه كلّ شيء.

- يجعلك صامتًا في أكثر أوقاتك وتتوقف عن معاتبة أيّ أحد.

- حذرًا طيلة حياتك.

- يجعلك تحضن ملاذ الوحدة والانزواء طويلًا، وتنعزل عن كل ما يحيط بك.

(جميع الاعتذارات باردة ، أمام حرارة الخذلان).

من المؤسف حقًا أن يقابلك شخص أحسنت إليه بالإساءة لك، وأن يجازيك بالخذلان والخيبة بعد الوثوق به، إنّه لشيء محزن أن تُعاد أحداث قصّة مثل (سينمّار) في حياتك، أن تهبّ قلبك لشخص ما دفعة واحدة وتذهب إليه بكامل جوارحك ثمّ يجازيك بالهجران والغياب، ثمّ تتساءل متعجّبًا: كيف له أن يغمض عينيه كلّ ليلة وهو يعلم جيدًا ما فعله بي؟؟ كيف له أن يمضي دون اكتراث دون أن يضيره ما آل لقلبي؟ كيف له أن يمضي بسهولة، دون وداع، دون سبب، دون أيّ عذر يُتيح

له الذهاب، مضى وترك خلفه أكوام من الذكريات؟
كيف له أن يحظى بحياة سعيدة دون الشعور بالذنب، دون أن يأنّبه ضميره؟
كيف يمكنه أن يحظى بحياة سعيدة وهو جعل أشلائي تموت،
وأشعل جحيمًا في داخلي دون أن يرّف لقلبه أيّ جفن؟
كيف يتركني تحت رحمة الليل والحنين؟
كيف له أن يفعل كلّ هذا بي؟ كيف؟.

(ليس ثمّة ما هو أسوأ من أن يفارقك أحد وبقلبك حبّ عظيم له، أن يكون الفراق بيده وبلا عذر، ليس ثمّة ما هو أفظع من أن تعيش هذا الحبّ لوحدك).

الحبّ قاتل صامت يا صديقي.

ذاتٌ ضائعة:

إنّ أكثر ما يؤرق الإنسان هي حالة الضياع وشتات الذّات وتقلّب المزاج:

إنّ أسوأ حالة قد تمرّ بها في حياتك أن تكون متغيرًا ومتقلّب المزاج لفترة طويلة، لا حال ثابت لك، ولا تستطيع إمساك حالة من حالاتك تؤكّد فيها وتجزم أنّك أنت، تكون متعدّد الشخصيات، لا شخصيّة مستقرّة لك. تمامًا كما قال د. مصطفى محمود: " كلّما أمسكتُ بحالة من حَالاتي و قلت هذا هو أنا، ما تلبث هذه الحالة أن تفلتَ من أصابعي، وتحلّ محلَّها حالةٌ أخرى هي أنا أيضًا. "

وإنّ أقسى شعور قد يراودك هو التخبّط بين قرار الاستسلام أو المقاومة، بين الظعن أو البقاء، بين الاستمرار أو التوقّف، بين الشعور واللاشعور، أن تكون متأرجحًا بين قرار البوح ما يختلج قلبك أو الكتمان، فإذا بُحت ما في داخلك أو كبتّها فأنت لا تعرف ما هي العواقب.

ثمّة كلمات هائلة وكبيرة جدًا متكدّسة في داخلك إمّا أن تبوح بها لأحد وتهدأ قليلًا وبعدها تندم وإمّا أن تكتمها وتحدث خرابًا هائلًا في قلبك.

البكاء والذكرى والحنين:

يعتكف الليل وحيداً ما بين البكاء والذكرى والحنين.

رُبما تجهش بالبكاء ليلًا حدّ التعب وحتّى الغرق ببحر دموعك والشردقة بها، من فرط الحزن والشعور المقيت وثُقل الكتمان، تجهش بالبكاء تسكينًا لآلامك وتفريغًا لأوجاعك التي تكون فوق المحتمل، ولكميّة الحزن التي تعبّئ الروح، إنّ بكاءك المرير فجأة ليس هزلًا وإنّما هو إحساس بالاختناق وشعور انفجر؛ ليهوّن عليك ما لا تتحمله وفاق قدرتك، ورُبما تحاول النّوم بأيّ شكلٍ من الأشكال تأجيلًا للألم هربًا من مواجهة الحنين، من كلّ شيء قد يؤرق مضجعك ويقسم ظهرك ويطمس ملامحك، تفرّ إلى النوم قبل أن يلمّ الليل شمل أحزانك من كلّ حدب وصوب، قبل أنّ يستقبل ضيفه الحنين الثقيل، وتودّ لو باستطاعتك حيازة القلب في منأى عن كلّ ما يحدث، من أن ينزف ألمًا حينما يفترس الوجع الصاخب أركان الروح، وتفكيرك الدائم يصبح الليل والذاكرة، كيف تنجو من وحشيتهما؟

بوح:

لقد سئم تكاليف الحياة وغير قادر على تحمّل تقلّباتها وصفعاتها، وقلبه ممتلئ بالهموم والأحزان.

يُعاني كثيرًا:

من همجية الليل الّذي يقلق هدوءه وراحته، من الحنين حينما يلامس زوايا ذاكرته، حينما يلامس قلبه الّذي أضناه التعب والغياب، يعاني من الذكريات القديمة حينما تهبّ ليلًا وتلامس زوايا الذّاكرة وتنثرها، حينما تخلع أبواب القلب ويتركها مشرّعة على مصراعيها، يعاني من الذّاكرة المتخمة بالأوجاع الممتلئة بتفاصيل لا تُنسى التي تصفعنا دون مبالاة أو شفقة، يعاني من تمرّد الحنين وغوغائية الذّاكرة واللحظات العالقة فيها، يعاني من الأرق الملازم له منذ فترة طويلة، وفرط التفكير والشعور الصامت، ونوبات من البكاء.

صمتٌ يخيّم على كلّ شيء، إنّ أجواء لياليه تكسوها الكآبة واليأس والحزن، يكسوها وشاء القلق والأرق والضجر، وذكريات قديمة متعفّنة تكسو جسد الذّاكرة وتعربد فيه، وتؤجج الحنين المستوحش وتوقظ بعضٍ من الذكريات من سباتها العميق. على ضفاف الذّاكرة ذكريات لا تغيب أبدًا، عصيّة على النسيان،

أبديّة مخلّدة باقية، كلّما وقع الليل وقعت الذّكريات عليه، كثيرًا ما تتمرّد ليلًا بأساليبها المخيفة، فتسرد ما يؤرقها وما تختزنه في جيوبها الممتلئة، سردها يكون عبثيًا فوضويًا، لا يضيرها الترتيب ولا الفوضى العارمة، لا يضيرها معاناته أبدًا.

ذاكرته تدخر حكايات عصيّة على نسيان، تخزن قصص أصعب من أن تُنسى.

ذاكرته ممتلئة، محشوّة بالأوجاع والخذلان التي لا يستطيع الهرب منها ولا التخلّص منها.
ثمّة خرق في الذّاكرة وثَمّة سيلان للذكريات لا يتوقف.

حينما يَجنّ الليل تُجنّ الذّاكرة و :
- أطرافه تتخثر وتصاب بشلل تام.
- دقّات قلبه تتلخبط، تصبح غير منتظمة.
- ينتابه شعور بالاختناق ويشعر بلهيب يُحرق صدره.
- قلبه ينكمش في صدره الّذي يعلو ويهبط يركض النبض فيه بسرعة رهيبة.

- جسده ممد على سريره المتهالك كجثّة منسيّة هامدة.

- عيناه تصابان بحالة بكاء شديد وسرعان ما تميلان إلى الزرقة.

- وجهه يصبح شاحبًا، خافتًا، باهتًا، منطفئ.

- ضجيج يُقيم في رأسه.

- جحيم يشتعل في داخله.

- تفكيره يتشتّت.

- رغبة ملحة في الانزواء والانطواء.

- رغبة شديدة في البكاء.

- رغبة ملحّة في الموت

هذيان وصرخة:

آآآه كم أنت موجع أيّها الليل وقاسيّة أيتها الذّاكرة..

يخاف كثيرًا:

من أن يقع قلبه أسير قفص الليل وزنازين الماضي ومعاقل الحزن، من الذّكريات القاسية الغائرة في منتصف الظلام، من الحنين، من الفقد والتفكير به، من الخيبات والصدمات المفاجئة، من الغياب المفاجئ، من الندم بعد الخيبة، من الانتظار، من أيّ شيء قد يُرهق قلبه ويتعبه

لولا بكاؤه كلّ ليلة لغرق من الداخل، إنّه:

يكتم في صدره المتآكل كلمات خانقة، حارقة، متعفّنة مكبوتة منذ زمن طويل، يودّ لو باستطاعته إخراجها والبوح بها، ولكن تبقى هذه الكلمات أقوى من أن تُباح وأصعب من أنْ تُنسى، لو أنّه يمتلك قدرة خارقة في شقّ صدره وجمع كل الأشياء العالقة في صدره وينثرها في مهبّ الريح هكذا تتلاشى وتختفي بلا عودة، تذهب بلا رجعة، هذه الكلمات جاثية على صدره المهشّم كالطود العظيم، كجبل شاهق شامخ، كصخرة ضخمة، هذه الكلمات عالقة في سقف حلقه كشوكة حادّة عالقة في الحلق لا أنت تستطيع ابتلاعها ولا أنت قادرٌ على إخراجها، هكذا هي الكلمات العالقة في حلقه، لا هو قادرٌ ببتلاعها ولا قادر على لفظها، إنّه يكبت في قلبه البائس كمٌّ ضخم من الأوجاع التي يعتصره.

في قلبه أحاديث ثقال، تؤرق مضجعه وتقصم ظهره وتشتّت تفكيره وتُطفئ رغبته اتّجاه كلّ شيء، يريد الخلاص منها، والبوح بها لأيّ أحد، يُريد فقط أن يرتاح قليلًا، قليلًا فقط، يُريد أن يبوح لأيّ أحدٍ عن حجم الخراب والجحيم الّذي هو فيه، عن حجم قسوة الليل عليه وهمجيّة الذكريات والحنين اللذان يغيران عليه كجيش ثائر كلّما حلّ الظلام، عن تكاليف الحياة القاسية وأحزانه، عن غائبٍ ذهب تاركًا أطنان من الحكايات التي لا تُنسى وراءه، ذهب بلا عذر ولا عودة، ولكن يخشى من عواقب البوح، يخشى من أن يلاحقه الندم، (تخبّط بين البوح والكتمان) فلا يعلم هل يُبقي تلك الأحاديث مكبوتة في داخله ويتحمّل آلامها وصفعاتها ولذغاتها ولهيبها وأنّاتها أم يبوح ويندم. ولكن:

(يبقَى الكتمان أرقى أنواع الوجع وأخفّ من البوح)

القلوب المكلومة والتي عاث فيها الحزن خرابًا ودمارًا والتي تُعاني من مرارة الغياب تنهار ليلًا فوق الورق:

البوح للورق أرق وأعمق وأصدق، وتؤمن عقباها ولن يرافقك الندم. إنّه لن يفشي لك سرًا.

بوح على ورق:

فَقد قُدرته على الحديث بصورة صحيحة بلا تلعثم، ما عاد يقدر على تحمّل الأشياء التي تُثقل كاهله، بكاؤه المرير أصبح شبه دائم، كالطفل يُبكيه أيّ شيء، أصبح الانزواء والانطواء ملجأه الوحيد، قلبه مثقل بالخيبات والذّكريات، ويحمل في صدره ألوانًا من الحنين لأشياء مضت، وعقله منشغل على الدوام بشتّى أنواع التفكير، يودّ أحيانًا البوح وإخراج بما يعصف بصدره من كلمات فتختفي، أن يصرخ من فرط الكتمان فيتلاشى صوته، يُشبه الأمر أن تبدأ بالبكاء دون دموع.

تقاسيم وجهه كأنّها غير مبرمجة للضحك، ولا حتى لابتسامة عفوية، عقدة حاجبيه دائمة لا تنفكّ، وجهه بائس باهت، ترى وجهه لا يليق به إلّا الحزن فقط، الحزن فقط ولا شيء غيره، لا شيء فكاهي في أروقة غرفته يداعب وجهه (أو كأنّه فقد قدرته على الضحك وعلى تصنّعها أيضًا وأصبح الحزن العلامة الواضحة على وجهه).

أصبح يعيش بلا هدفٍ أو غاية، انطفأت لديه كلّ الملامح الرغبة واللهفة والشغف، وقُتل كلّ شيء، فقد كلّ شيء قيمته ورونقه، ما عاد يستسيغ لذّة الحياة أبدًا.

كم هو مثير للشفقة:

- ملامح باهتة.

- دموع أبت أن تهدأ.

- قلب يأنّ ألمًا وشوقًا.

- كلمات عالقة في الحنجرة.

- وجهه يختلط بملامح الخوف والحنين، ترى فيه كلّ علامات الشقاء والتعب، تجاعيد الزمان طُبع على وجهه الشاحب البائس.

- خطوط وجهه المتجعد كممرات جحيم، كطرق صنعها بركان ثائر كأزقة ضيقة مجعلكة.

- عيناه ذابلتان، منتفختان، تحيطهما سواد داكن، ترى فيهما علامات الدهشة والألم والحسرة والترقّب، عيناه بوح بدون كلمات، من خلالهما تعرف ما لا يستطيع بوحه، تعرف مدى الشقاء والتعب الّذي هو فيه، (العيون تفضح صاحبها، تفضح ما في داخله مهما كان بارعًا في التظاهر وتمثيل دور الصلب القوي).

- دهاليز ذاكرته المعطوبة، مفعمة بالبؤس، مدججة بالذكريات، مفخخة بقنابل الحنين الموقوتة التي تنفجر عندما يحلّ الظلام (ذكرى، مكان، حدث، شخص، عناق قديم، كلّ هذا يُشعل فتيل تلك القنابل).

- جسده كجثة منسيّة، هامدة، كضحيّة وحش جائع، كرداء مهلهل، كأوراق الخريف الناشفة المتساقطة. كعود يابس.
- تصرّفاته حينما ينتصف الليل جنونية، هستيرية، لا يعي ماذا يفعل ولا يعي ما يبوح به، يصاب بهستيريا حينما يحين الليل.

لا قدرة لنسيان ما يتمنّى نسيانه وما لا يُطيق تذكّره:

ذاكرة مدجّجة بلحظات حادّة مزّقت قلبه.

عاجزٌ كلّ العجز على وضع جميع الذكريات اللئيمة على رفوف النسيان أو رميها على قارعة الطريق أو يُلقي بها على أرصفة ومعاقل النسيان، يودّ لو أنّ ذاكرته تعود فارغة، خاوية من كلّ ما يؤذيه، من كلّ شيء، حتى بقايا الذكريات الجميلة لا يريدها، إنّ النسيان نعمة يفتقدها.

يودّ لو باستطاعته:

- أنّه يحمل قلبًا جليديًا لا يشعر بشيء ولا يكترث ولا يسأم من تكاليف الحياة أبدًا.

- أن يفتح ثقبًا في أحد جدران ذاكرته، ليتخلّص من جحيم الذّكريات المستعرة فيها، أن يتخلّص من كلّ ما يثقل كاهلها ويُفزعها وكلّ ما يؤرق الجسد.

- فقدان الذاكرة.

- استفراغ مرارة الشعور التي بداخله، مدّ يده لقلبه وقلعه من أحشائه.

- إخراج ذاكرته ونفضها من غبار الماضي، اجتثاث الكلمات العالقة في حنجرته ونثرها في مهبّ الريح.

- الهرب من قطيع الذّكريات المتوحّشة التي تهاجمه ليلًا، من أشباح الحنين، من فرط التفكير، من المشاعر المتراكمة، من ضجيج داخله، من ذاته، من واقعه المتأزّم، من كلّ شيء يسبب له الألم والضجر والذعر.

- النوم ليلة واحدة دون هذيان، دون الغرق بدوّامة الماضي، دون أفكار وخيالات تُمزّق خلايا عقله، دون ندم يلاحقه.

- خلع رداء الماضي ونسيان كلّ التفاصيل المؤلمة .

- العيش دون قيود تكبّل روحه وجسده، يودّ لو يتحرّر من قيود الماضي، سلاسل الحنين، قضبان الذكريات، معقل الوحدة، زنازين الحزن.

- أن يجد مفرًّا ويهرب من قبضة الماضي، من قفص الليل والذّكريات.

- يودّ لو يصاب بألزهايمر وينسى.

يودّ لو أنّ كل شيء يتغيّر ويتحوّل:

- يودّ الخلاص ممن كان سبب لكدر الحياة وسقمها وسوئها، من كلّ شيء يعكّر صفوه ويُثير براكين أحزانه الخامدة.

- يودّ لو أنّ الأشياء الجميلة تلامس قلبه البائس ووجهه الباهت.

- يودّ لو أنّ فجر حياته يبزغ بعد ليالٍ ظلماء قاحلة طويلة.

- يودّ لو أنّ وورد حياته الذّابلة تستفيق من جديد بعد خريفها.

- يودّ الخلاص من الليل وهمجية الذاكرة؟

يخطّ على الأوراق ما يختلج قلبه:

وحينما يشتدّ سواد الليل ظلمة، ويعم السكون والصمت المطبق، يبدأ الرجل يهمس للأوراق المتراكمة والمتناثرة على أرجاء طاولته العتيقة، يسرد لها حكايات جميلة، ولحظات قديمة، وقصص موجعة، وذكريات سيّئة مستوطنة فيه منذ زمن آثارها باقية لا تزول، يبوح للأوراق والقلم يدوّن ما يبوح به.

" لا شيء يهيّج الذكريات ويثيرها ويبعثر الحنين سوى الليل يأتي بهدوء فيثير ضجّة صاخبة في مكنون النفس، يثير كلّ ما بداخلك، الذكريات هي أكثر ما يُتعب المرء ويُرهقه "

يبوح للأوراق:

إنّه يُخرج ما يكتم في قلبه وما يعتصر صدره وذاكرته من أطنان من الذكريات اللئيمة والأليمة التي تأتي ليلًا على هيئة أشباح مخيفة، تحاصره وتتوّقه، وتجعل قلبه قطعًا صغيرة، يهمس في أذن الأوراق تفاصيل ماضية وقصص ما زالت متشبثة بجدران الذاكرة، وحكايات عالقة في ذاكرة القلب لا تغيب: تتساقط أمنياته كورق شجر أصابها خريف قاسٍ، أحلامه كلّها تجمدت كقطع جليد، رغباته ولهفته في الحياة انطفأت وتلاشت وتبخّرت، رياح الحنين العاتية لا تكن ولا تهدئ، تقتلع جسور الذّكريات وجذور الكبرياء، تحطّم قلاع الصبر وتعبث بنبضات القلب، رياح الحنين القاسية تعرّي الروح ويشحذ الأشواق، ويُزيل قناع القوّة التي تصطنعها، أزير الرياح يربك هدوءه ويملأ روحه بالضجيج والذعر، لا شيء يُطفئ نيران الشوق المشتعلة والمستعرة، نيران الشوق تكلّ عمّا تحرق:

" للشوق لهيب وزفرات، لهيب مستعر حارق يكوي أضلع القلب وجسد الذاكرة، يُحدث جحيمًا لا ينطفئ ودمارًا هائلًا في الداخل، لا يذوق حرارته وآلامه إلّا من جرّب الحبّ والفقد ".

وللشوق أنياب حادّة تقسم جسد المشتاق نصفين ".

ومن فرط:

- البكاء جفّ دمعه، ما عاد في عينيه دموع يذرفها.

- التعب أنهك جسده، ما عاد جسده يقوى على حمل نفسه.

- الانتظار ذبلت ملامح وجهه وتجّعد.

- الحزن شُلّت أطرافه وصُمّ عن الكلام.

- الشعور أصبح لا يشعر بشيء.

فصولٌ أربعة يُعانيها:

شتاء الذاكرة القارص وما يحمله من رياح الحنين الجنونية التي تهب دون وقت محدد، تهبّ فجأة، (وتظل الذّكريات تبعثرها رياح الحنين في وجه الذّاكرة)، سرعان ما تتحول رياح الحنين إلى زوابع محشوّة بذكريات سيّئة، مميتة، قاتلة، حينما يشتدّ الليل ظلمة، عواصف الشوق الفتاكة تصفع وجهه بالبكاء، تهزّ أوتار قلبه بلا رحمة، تمزّق ستائر النسيان التي أسدلها على نوافذ الماضي، تجتاح خلايا الروح وتشلّ حواسه الخمس، تجتث كل ما هو جميل من الذّاكرة غفل عن تذكره.

لحظات ماضيّة متناثرة على أرصفة الذكريات كأوراق خريف صفراء تعبث بها الرياح، كل الأشياء الجميلة تتساقط الواحدة تلو الأخرى وتبقى ما لا نطيق ذكراها يانعة مخضرّة في حقول الذّاكرة.

صيف الليل حارق، يُلهب جسد الذاكرة ويُحرق خدّ النسيان، ويُشعل حريقاً ضخمًا في الدّاخل، تصاب الذكريات ليلًا برطوبة خانقة، قاتلة، تهاجم حواسه الخمس وتبتّل عظامه.

ربيع الذاكرة، ولا يزهر الربيع شيئًا.

الليل والحنين وفوقهما الذّاكرة:

قاسية هي الذّاكرة التي تخزّن في صناديقها كل حكايات الماضي، آلامه وأنّاته وأوجاعه وكل ما لا يطيقه القلب على تحمّله، تخزّن كلّ ما لا تقدر على نسيانه، كلّ اللحظات القديمة لا تموت أبدًا، إنّها تُخلّد في الذّاكرة وتبقى ما بقي صاحبها، إنّ الذّاكرة وفيّة لا تخون وفيّة للذكريات، للأحداث، للأشخاص، للألم، للحنين، لكلّ ما في جعبتها.

وقلب الليل قاسٍ لا يرقّ، كصخرة صمّاء، كالصوّان وأشدّ من ذلك، قاسٍ هو الليل ولا يكترث لأمرك أبدًا، لا لبكائك ولا لأحزانك، ولا لأنّاتك وصرخاتك، لا يضيره مدى المعاناة التي ستعانيها، مدى الهموم التي تسكن قلبك وجسدك، قاسٍ هو الليل حينما يرتدي رداءه الداكن، وشاح البؤس والكآبة والضجر، قاسٍ هو الليل حينما يسدل ستار الوحدة والذّكريات والحنين، قاسٍ هو الليل حينما يمارس طقوس الألم على جسدك الهزيل.

قاس هو الليل والذّاكرة لا تبالي أبدًا.

الماضي البغيض وتمادي الحنين في نبش الذكريات القديمة المدفونة، وقسوة الاشتياق الّذي يجلد جسدك بسوط من الحنين ويصفع وجه الذّاكرة، إنّ مرض الاشتياق يُنهك الجسد ويشتت

العقل ويعثو في قلبك خرابًا كبيرًا، مرضٌ مستعصٍ، داءٌ لا طبّ ولا دواء له.

الليل والذكريات هما الموت بحد ذاته، وحشان شرسان في جسد واحد.

يزداد مشهد الموت بشاعة ما إن يتضامن الحنين مع الليل والذكريات؛ ليعلنوا أنّهم هم القوّة الضاربة التي لا يستطع أحد ردعها أو مقاومتها، إنّ هذه القوّة تتسلّط على القلوب الطيّبة والأجساد المنهكة على المنفيين والمنسيين، على المصابين في قعر قلوبهم، والمنتظرين. على الذين ذاقوا مرارة الفقد.

إنّ الحنين:

- لعنة، سلاح يفتك القلب والجسد، وحشٌ شرس.
- جحيم لا يُطاق.
- مخيف جدًا ومُفزع، يقتلك حيًّا.
- يقضم جدران القلب ويدميه ويقصم الظهر ويهدم أركان الروح.
- يقتل شهيّتك اتجاه كلّ شيء.
- يؤرق مضجعك ويُطفئ ملامحك، ويقتل ابتسامتك.
- يُرهق العقل والقلب، ويأكل الجسد.

- يجهز على كلّ شيء جميل، لا يتعفف عن تعذيبك.

- وحش ضخم يقطّع أوصالك وينهش روحك بلا شفقة.

- شبح مميت مفزع، يهتك نبضات قلبك، يملأ داخلك ذعر وخوف، ينهي الضحكات ويمحو ملامح الابتسامة من وجهك.

- عدوًا للإنسانية.

- فاجعة وكارثة.

ذكرياتٌ مستوطنة في الذّاكرة:

الليل لم يكفيه أن يكون سيد الظلام وحده، بل حقل خصب للذكريات، إنّ الذكريات الصاخبة العتيقة العالقة على جدران ذاكرتك وجوف قلبك :

- تُتعب الجسد، وتنهك الروح.
- تستفزّ هدوءك، دموعك، تستفزّ شعورًا صامتًا وحنينًا ساكنًا.
- تؤرق مآقيك، وتقلق مضجعك، وتقسم ظهرك.

حين تُداهِمُك الذكريات الموجعة تُجبِرُك على البكاء ولو كُنتَ وسط حفل زفاف:

مؤلمة هي الذكريات حين تأتيك دون استئذان، دون موعد محدد، تأتي فجأة بلا سابق إنذار وبلا سابق موعد، تأتي الذكريات على هيئة وجع قاس، تدمي القلب، وتأكل الروح، وتنهك الجسد، تأتي الذكريات ليلًا على هيئة أشباح مخيفة تداهمك وتحاوطك من كلّ مكان، تقلب عليك المواجع والأحزان، وتدب فيك الفزع والموت، تغرس في أعماق قلبك الخوف والحزن ويكمن فيك كل أنواع الألم والوجع والقلق. تحاوطك الذكريات وتستثير حزنك وتفض غبارها على أكتافك.

تأتي الذكريات ويأتي معها الألم والقسوة، يأتي الشر معها، تأتي الذكريات مخيمة على أعماق قلبك وجروحك وذهنك، تحتلّ مخيلاتك وكامل جسدك، ويمطرك الحنين بسهامه القاتلة والذّاكرة بوابل من الذكريات السيئة والجميلة، أكثر أنواع الذكريات إيلاما هي الذكريات الجميلة حين يغيب من كان سبب لهذه الذكريات، وتأخذك الذاكرة إلى شرود ذهني طويل؛ لتتذكر لقطات جميلة وسيئة من حلقات قديمة ماضية.

وتأتي الذكريات على شكل ومضات مؤذية تضرب أطراف الذاكرة وترحل مما تسبب انهيارات للذكريات في الذاكرة يحطم نفوسنا المتعبة وذواتنا المهلهل.

"مباغتة الذكريات ليلًا كارثة وجحيم لا يطاق" تأتي الذكريات غائبة عنها من كان سبب لهذا الكم الهائلة من الذكريات !! . رحل الغائب وبقيت الذاكرة الممتلئة بمخلفات الغياب والمفعمة بتفاصيل وقصص وذكريات من الصعب أن تنسى.

هو رجلٌ :

- أفكاره مشتّتةٌ، تائهةٌ، يُعاني من فرط التفكير.

- قلبه أعياه الوجع، وأنهكه قسوة الحنين ولامبالاة الذكريات.

- بكاؤه لا ينقطع، دموعٌ حارقة يذرفها كلّ ليلة (ربّما العاشق لايُلام على بكائه).

- يُعاني من القلق والأرق.

- ذاته كخيوط متشابكة.

- أسير قفص الذكريات، ويعيش تحت رحمة الحنين والليل.

- كل الطرق التي سار إليها وسلكها مظلمة.

- واقعه مأساوي مشوّه، منهج واقعه سيء.

- أمنياته لم تتحقق . أحلامه ما زالت أحلامًا، لم يتغير شيء.

- يعاني من صراع داخلي مع نفسه، صراع لا ينتهي.

- أوجاع باقية لم تذهب، أنين متواصل لا ينقطع، أطياف مؤذية لا تغيب.

- ذكريات جميلة وسيّئة لا تذهب مستوطنة في قعر الذاكرة ومتشبّثة في جدرانها.

- أماله لم تأتي، أحلامه منسيّة.

- مشاعره مكبوتة، مكدّسة في صدره المتآكل، عيناه ممتلئتان بالدموع الساخنة، صمته قاتل.

- صوته بُحّ، حنجرته تالفة مكبوتة، الكلمات متجمهرة في داخله وتخالجنه غصة لا يستطيع البوح بها.

- مزاجه سيئ، متعب حدّ الهلاك، كيانه محطّم، لديه رغبة جارفة بالموت.

يعيش بين قسوة السنين وثقل الأيام:

- ضحكات مهاجرة، ابتسامات راحلة، أحزان مستوطنة.

- صدف ضائعة، ترقبات طويلة، أحاسيس لاسعة.

- مشاعر مخربطة، أطياف مؤذية، جروح ملتهبة؛ بسبب وحشية الليل وهمجية الذاكرة.

- جسدٌ ركيك، مهلهل، عينان تائهتان حائرتان، وجه مجعّد مائل للزرقة.

- خيبات متكررة، رغبات منطفئة، خوفٌ وألم ومعاناة وتشاؤم.

- صعقات الحنين وصفعات الماضي مؤذية لا تتوقف.

***

أسئلةٌ، أعرف أجوبتها..

هل حدث وشعرت:

- أنّك غير قادر على حمل نفسك وتحمل ثقلًا جاثيًا على صدرك كالطود العظيم؟
- أنّك عاجز كلّ العجز عن فعل أيّ شيء يُخفّف عنك ثُقل الأيام وحدّتها على قلبك؟
- أنّك سئمت من تكاليف الحياة وشدّة قسوتها، ومن كلّ شيء؟
- أنّك عاجز عن بوح ما يختلج قلبك والحديث مع أحد حتّى مع نفسك؟
- بأنّ الرغبة اتجاه كلّ شيء مجتثّة منك؟
- أنّ الدنيا كلّها أغلقت أبوابها في وجهك؟
- أنّ كلّ شيء تراه يختلط بالسواد وتوقفت كل اللحظات السعيدة عن لمس قلبك؟
- أنّ أحدًا ينتزع قلبك بقوّة من مكانه؟
- أنّك تشعر بالوحدة رغم وجود الجميع مِن حولك؟
- أنّ توازنك قد اختلّ وأنّ ذاتك يسقط منك ببطء مُقيت ومُريب وغريب؟
- أنّ روحك من حرارة الحُزن تحترق؟

- أنّ لهفتك انطفأت والرغبة اندثرت وأنّ كلّ آمالك انكسرت وتلاشت؟

- أنّك تحتضر في حين أنّ جسدك ما زال على قيد الحياة، ومجرّد من أيّ شيء يؤكّد أنّك على قيد الحياة؟

- أنّ حريقًا ضخمًا يشتعل في داخلك وأنّ الكلمات تقف في وسط عُنقك ولا تخرج من فمك، غير قادر على البوح والفضفضة؟

- أنّ شيئًا ضخمًا وثقيلًا جاثٍ على صدرك المهترئ، وأنّ جبلًا شامخًا عظيمًا يحتلّ مكان قلبك؟

- أنّك تنافق ذاتك بالضحك (تضحك عليها) وأنت تجهش بالبكاء من الداخل، وأنّ الحزن يستوطن أعمق عمقٍ في داخلك؟

- أنّك تائه، مشتّت، ضائع، فاقدٌ للتركيز والتّوازن، وأنّك أنت ما عدتَ أنت؟

- أنّ لديك رغبة جامحة في التخلّي عن كلّ شيء حتى عن نفسك؟

- أنّك تريد الاختباء والالتواء في حضن نفسك؟

- أنّك تُريد الفرار من نفسك، وواقعك؟

- هل شعرت يومًا أنّك أنت لم تعد أنت؟؟

فلا أدري، كيف لك أن تحيا بوجود جحيم ملتهب في داخلك.

خواطر قصيرة

ثورة الأحزان:

إنّ جسد الإنسان إذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد بالسهر والحمّى، ثوران بركان ملتهب قد يثور بسببه براكين خامدة تقطن حوله، هكذا هي الأحزان، مجرّد حزن واحد فقط كفيل بأن يستحضر جميع الأحزان الرّاكدة التي في داخلك، ينبش الجروح ويستفزّ جسد الحنين، حزنٌ واحد باستطاعته أن يُعيد إليك كلّ أحزانك دفعة واحدة، ألم واحد كفيل أن يُرجع سلسلة الآلام السالفة، وهكذا هي الذكرى، مجرّد ذكرى واحدة غائرة توقظ جميع الذكريات القابعة في ذاكرتك من سباتها العميق وتُنهي كلّ أتعابك ومحاولاتك الدائمة في التناسي والتغافل.

لا شيء يقف أمام ثورة الأحزان:

تقسم ظهرك، وتعبث في داخلك وتفجّر فيها براكين وحمم تجعلك في جحيم قاتل، تلمّ شمل أحزانك من كلّ حدبٍ وصوب، تُرهق روحك وتجعلها تتلاشى وتختفي، تؤرق مضجعك وتهشّم

أضلعك، تطفئ لهفتك وتقتل شهيّتك تجاه كل شيء، يفتك القلب والروح ويجهز ما تبقى من جسدك.

يجعلك فارغًا من كلّ شيء.

***

فرّ من الحبّ كفرارك من الأسد:

غالبًا ما يتعلّق قلبك ويتشبّث بمن يرحل سريعًا:

ولأنّك تسامح كثيرًا وقلبك هشّ ككسرة خبز يابسة، ولأنّك لا تستطيع تحمّل أي صدمة مفاجئة تدك قلاع قلبك دكًا وتحطّمه، ولأنّك تثق بالآخرين ثقة مفرطة وعمياء (تقدم الثقة على طبق من ذهب دون أدنى شك)، ولأنّك لا تقوى على النسيان وليس لك مع الذّاكرة خبز (نسيان الماضي، الخيبات، الأشخاص، الأماكن ..)، ولأنّ ذاكرتك تحتفظ بتفاصيل الماضي الصغيرة والكبيرة (لا تفوتها شاردة ولا واردة)، ولأنّ الليل قاسٍ وطويل على المصابين في قلوبهم، والممتلئين بالذكريات والحنين، على الذين ذاقوا مرارة الفقد، على المخذولين والمكلومين، ولأنك لا تستطيع تحمّل لدغات الحنين المؤلمة وصفعات الذكريات القاسية، وهمجيّة الليل، ولأنّك تخاف الغياب المفاجئ.

يجب عليك أن تتنحّى عن الحبّ جانبًا. وتفرّ منه.

إيّاك والحبّ، إياك والسير في طرقاته، طرقات الحبّ مليئة بالفخاخ والأوهام! (طرقات لا عودة فيها، محفوفة بالمخاطر والمهالك والعثرات)، محفوف بالدموع والأوجاع.

فرّ منه كفرارك من الأسد، فرّ منه كلّما اقترب منك، فإنّه إذا تمكّن منك أجهز عليك، ستصبح لقمة سائغة في فمه ويبتلعك.

الحبّ أشبه بالانتحار، كأنّك تعقد حبل مشنقتك بيدك وتُجهز على نفسك. هذا هو الوصف الّذي يقاربه ولا عجب.

فكن حذرًا جدًّا.

❖❖❖

لقد سئم تكاليف الحياة وغير قادر على تحمّل تقلّباتها وصفعاتها، وقلبه ممتلئ بالهموم والأحزان:

يُعاني كثيرًا:

من همجية الليل الّذي يقلق هدوءه وراحته، من الحنين حينما يلامس زوايا ذاكرته، حينما يلامس قلبه الّذي أضناه التعب والغياب، يعاني من الذكريات القديمة حينما تهبّ ليلًا وتلامس زوايا الذّاكرة وتنثرها، حينما تخلع أبواب القلب ويتركها مشرّعة على مصراعيها، يعاني من الذّاكرة المتخمة بالأوجاع الممتلئة بتفاصيل لا تُنسى التي تصفعه دون مبالاة أو شفقة، يعاني من تمرّد الحنين وغوغائية الذّاكرة واللحظات العالقة فيها، يعاني من الأرق الملازم له منذ فترة طويلة، وفرط التفكير والشعور الصامت، ونوبات من البكاء.

يخاف كثيرًا:

من أن يقع قلبه أسير قفص الليل وزنازين الماضي ومعاقل الحزن، من الذّكريات القاسية الغائرة في منتصف الظلام، من الحنين، من الفقد والتفكير به، من الخيبات والصدمات المفاجئة، من الغياب المفاجئ، من الندم بعد الخيبة، من الانتظار، من أيّ شيء قد يُرهق قلبه ويتعبه.

❖❖❖

فقدان الذّات والرّغبة:

إنّ أسوأ ما قد يواجهه الإنسان هو الشعور بفقدان الرغبة اتّجاه كلّ شيء، بالعيش، بالحديث، في فعل أيّ شيء، إنّ هذا الأمر يُشبه الموت بأعين مفتوحة ورئة تتنفس، أو يشبه العيش بلا أطراف كالمعاق تمامًا، تصبح فارغًا داخليًا، خاوٍ ومجوّفًا، لا شيء يُذكر، لا بصيص أمل، ولا ذرّة شغف للعيش، ولا نصف قشّة تتعلق بها وتنقضك من الغرق في دوّامة هذا الشعور، لا يوجد شيئًا أبدًا تشعر به من الداخل سوى حدّة الفراغ الموحش، ما عدت تستجيب لما يدور حولك من أحداث، ما عدت تتأذى مطلقًا، وما عدت تهتم لفواجع الدهر.

حاول كثيرًا الهرب من واقعه المتأزّم، في التفكير في أشياء جميلة حتى ولو كانت مستحيلة أن تطبق على أرض الواقع والغوص مع المخيلات السعيدة التي هي ملاذه الوحيد في الهرب من الواقع السيء.

حاول مرارا وتكرارا الهرب من قفص الواقع؛ ليخلق من خياله حدث ما جميل، يهدّأ نوعًا ما من آلامه وأحزانه.

وكلّ القلوب الطيّبة المثقلة تبتعد عن واقعها السميك؛ لتهرب بعيدًا برفقة الخيال؛ لتعيش معه حياة سعيدة ..

***

جيوبه خالية من الحلول:

وفجأة تلاشت الأحاديث، عمّ البرود والسكون، صمت مخيف، (فمقدمات الفراق قصيرة جدًّا) لذلك ما لبث إلّا وانتهى كلّ شيء، الحبّ كلّه انتهى، الأحلام تناثرت في مهبّ الريح (الأحلام تناثرت بصورة مؤسفة.)

نُسي وكأنّه لم يكن، كأنّه لا شيء:

لم يُدرك حتى اللحظة أنّهُ منسيّ من الذّاكرة وأصبح ضمن قائمة النسيان، منسي بين جمع غفير من الذكريات، لا ذاكرة تذكره ولا أرشيف من حلقات ماضية.

منسي كرف كتب فارغ.

ككتاب خالٍ من الأبجديات.

كذاكرة فارغة.

كطرقات خاوية من أيّ عابر.

كغريق وسط محيط بلا انقاض و بلا قَشّة.

كلا شيء.

كأنّ حكاياته كانت مجرّد أحلام، مجرّد أوهام، مجرّد خيال. يوهم نفسه بالنسيان إلى أن يأتي الحنين ويفسد كلّ شيء، كلّ محاولاته للنسيان فشلت فشلًا ذريعًا:

حاول مرارًا وتكرارًا نسيان ما يختلج قلبه ويؤرق مضجعه ويعصف صدره أن يتناسى أن يتغاضى عن ما يؤلمه وعن ما يعانيه ويعكّر صفو أيامه. ولكن دونما جدوى، كلّ محاولاته للنسيان فاشلة.

كم يتمنى أن يصاب بفقدان للذاكرة، بتلف شريط الذاكرة، أن يصاب بألز هايمر.

أ. حسام حمدان الرقب

❖❖❖

الانطفاء

الانطفاء، مارد ينهش روحنا، يجعلها كقنديل ليلٍ فرغ زيته، كإشارة مرورٍ تاهت ألوانها، فما عدت تبصر فيها إلا الضياع والتشتت، أرواحنا شيعت ذاتها في مقابر اليأس، ملامحنا تبدلت فما عادت هي، كلماتنا مفرغة، خرساء باهتة، لا تسمع فيها الشغف، لا تسمع اللهفة، ماتت أحاسيسنا في ليلة غدر.

كثيرًا ما تساءلت، لم تبدل الربيع فما عدت أبصره، كل شيءٍ بات باهتًا أصفرًا خاليا من أي حياة، وكيف لعصافير الحب أن يتحول صوتها إلى زعيق يخترق الأذن صداه، فيهز جهازنا العصبي وينرفزه، لم تعد تعرف كيف تحب!

ثقلت كلماتنا فما عدنا نطيق البوح، صمتنا قمة الثرثرة، نتحاور مع ذواتنا، نتكلم مع ظلنا، هل بتنا مجانين!

انطفأنا فما عدنا نطيق الاشتعال، لم في كل مرة ألملم ألواح سفينتي ودسرها، ترفضها الرياح، وتبقيها في شواطئ الحياة منبوذة بلا هوية ولا وجهة.

لم كلما هممت أن أنفض غبار الخيبة؛ لأستعيد ذاتي، تنقطع السبل إليها، فلا أجد إلا ظلًا مشوهًا ؟!.

أطفأتني. ما عدت طفلتك المدللة، ولا عدت فارس أحلامي الأنيق، وئدت كلمات العشق قبل أن تقال، غدرتني تركتني نصف الطريق أسترشد طريقي ولا أعرف!

هزمني الحب، خسرت حربه، إني أمامك أعلن استسلامي بلا رايات، لم أعد أقوى رفع رايات الهزيمة، فقد بترتني، قتلتني ! وها أنا أنزف ذكريات ، لم أعلم أن كثيرًا من السنين تضحي سرابًا في أول خيبة وأول انطفاء، وأول كلمة تخرج مزاحًا وفيها الحقيقة، ما زالت كلماتك المسمومة تنهش روحي، تنزف حسرة وخذلان.

أطفأتني، حلو الحياة ومرها سيان عندي، مذ خسرت نفسي حين أحببتك، وخسرت ما بقي من كرامة حين وضعت لخيبتي فيك أعذارا، ما عدت أطيق الخيبات وما عدت أطيق الأعذار.

كم مرة غبت دون أن تلتفت للنار التي تكوي شغاف قلبي، تمزقت أوصاله منك، تغيب وتخلق الانشغال لك عذرًا، رب عذر أقبح من ذنب، ما هذا ديدن المحبين، ترى لمَ بعثرتني حين وهمت أنك تلملمني من جديد، ألأني فتاة ريفية، وأنت صاحب الهيبة والفخامة والتمدن، أنا امرأة بقيود، وأنت رجل متحرر، أهكذا تدعي!

لم أوهمتني !إن كنت تراني امرأة ساذجة، لا تعرف من الحب غير معناه، هكذا كنت تقول.

ها أنا أقلب صورنا معًا، أغالب الدمع حينًا، وأطلق سراحه حينًا، كم أمقت نفسي هنا، في تلك الصورة التي تضع يدك فيها على كتفي، وتميل برأسك اتجاهي، أذكر أنني أنفقت نصف راتبي الشهري، لأتزين وأبدو في تلك الحلة التي رأيتني بها في هذه الصورة، أمضيت ساعات طويلة أبحث عن ثياب أنيقة لأنال إعجابك، كم كنت ساذجة حين لم أفرق حينها بين الحب والإعجاب، حين أوهمتني بحبك الزائف هذا، الحب أرقى من مجرد ثياب نتزين بها، و نظرات إعجاب غير بريئة.

الحب أن أكون شفافة تراني وقلبي معًا، تفهمني قبل أن أتكلم، تشعر بألمي فرحي وحزني، أجدك قبل أن أدعوك، وتسمعني قبل أن أنطق حتى.

ليتني أستطيع أن أتعايش مع واقعي الجديد، أن أبدأ من جديد، أن أعود إلى قريتي، حيث يكون النقاء، حيث أكون أنا، وأعود لأرى الربيع الأخضر، حيث لم أبصر معك، إلا الخريف المقفر، سأعود إلى قريتي، حيث الحب هناك، حيث تستنشق الصفاء في كل ذرة أكسجين، هناك الناس غير الناس، والحب فيه غير الحب، سأعود

وأستجمع شظايا روحي، أعود إلى سجيتي، إلى كلامي القروي العفوي، لا أتصنع من أجل أحد، لا أتجمل لأحد، سأعود إلى ذاتي القديمة، إلى فطرتي الأصيلة، سأعود إلى...نفسي أنا!

سأستأصلك كعضو بات بلا نفع ووجوده مصدر خطورة، سأجتث حبك من جذوره المغروسة في قلبي، وأضع يدي على جرحي وأطبطب عليه وحدي، أضمده وحدي، سأكون بخير، حين نستأصل ما يؤذينا، ونتخلص منه إلى مكبات الحياة، ونبدأ من جديد، هنا تنجلي غمامة الخيبات، وتنقشع سحبها، وتتبدل حالنا ونظرتنا السوداء، إلى ضياء جميل، حتى وإن دفعنا الثمن غاليا لكننا في النهاية ندرك أن راحتنا أولى من أي شعور، وأن لا شعورًا يضاهي شعور أن نخسر ذواتنا ونكون لغيرنا كما يحبون لا كما نحب نحن.

ليتنا نستطيع أن نعود إلى أول الخيبات، ليت عقارب الساعة أصيبت بالشلل ولم تتحرك، ولم يمضِ ذلك الوقت الكبير وأنا أتجرع معك علقم الخيبات، وصديد الجروح التي تنزف منك.

لقد قتلت كل جميل فيّ، لقد أصبحت كائنًا بشريًا نصف حي، أو نصف ميت!

لكنني أعترف ما زلت بعدك يعتريني شعور ....الانطفاء!

استفت قلبك

لمَ كلما استفتيت قلبي فيك تقبض؟، لكني أغض الطرف عن هذا الشعور، ليتني أصغي لفتواه، لكن حبي لك، غلب كل استفتاء، حبك سيدي شريعة وديانة، حبك جاب حدود الوعي إلى حد الثمالة بك.

حبي لك قيثارة عاج قتل فيلها بسهم مسموم، تصدَح منها موسيقى الوجع.

حبي لك حمامة سلام انتزعت من سربها، تهذي بالسلام، تبكيه، وهي أحوج ما تكون إليه.

حبي لك ريشة فنان في لوحة زاهية، وفي داخله سواد خلفته سنين عجاف من الخيبات.

أحبك، وحبي لك سحابة مطر أقطابها متنافرة، لكنها لا تمطر، أتكون السحب عقيمة!

حبي لك تناقضات.

أحبك سيدي وأكرهك.

أي حب هذا الذي يجعل من خريطة حياتنا، أشباه طرق لا هي تهدي ولا هي تضل، نبات في المنتصفات صرعى حيرة! وكل الطرق لا تؤدي إلى ...لا طريق.

أحبك. وأشعر أنني أسيرة، هل يحب السجين سجّانه، أي حب الذي نكون فيه سجناء بلا قيود ولا أغلال.

أيعقل أن أهذي بك!

حبك حمى ليس في كتب الطب ما يسعفني منها، ليت للحب كمادات حرارة، تزيل هذه الحمى وذلك الهذيان، لكن يا سيدي لا شيء يشفي منك إلا .... أنت.

ليتني أجتث حبك من قلبي، أبتره، ليتني أمحوك من ذاكرتي من كل أحلامي، من حبر أقلامي من صفحات دفاتري من كل شيء، فقد بت سيدي قابع في كل شيء، في رنة الهاتف في زجاجات عطري في تسريحة شعري في تفاصيلي الصغيرة، كيف لي أن أجتثك من كل هذا وقد بت في كل الأماكن!؟.

إني أحبك سيدي وأكرهك!

حبي لك سراب، أحسبه من وصبي بك ماء يروي هيامي، فحبي نثرته في بيداء قلبك الماحلة، وحصدت منه شوكًا أدماني، و جرحًا لا يندمل، كيف لي أن أستجدي سراباً!؟

إني أحبك سيدي وأكرهك!

حبك معزوفة موسيقية عازفها أصم لا يصغي لموسيقاه، يسمع بقلبه ويستشعر جمالها به.

حبك اجتياح، واحتياج هو احتلال، لقد احتللتني، سلبت لبي، ما عدت أرى الوطن إلا فيك.

أنت العدو الذي أخشى انسحابه، أنت قنبلة موقوتة، صيرت قلبي حقل ألغام أخشى أن ينفجر، صرت بك تائهة، أتجسس طريقي ولا أدل، صرت فيك مشردة، وأرى بك ملجأ!

إني أحبك سيدي، وأكرهك.

حبك دعوى أقيمت في محاكم الحب ظلما، لا حكم يبتها ولا هي تقبل الاستئناف.

حبك سيدي انفصام، أتمنى فيه أن أجدك وأخسرك، أن أعانقك وأكسرك، أن أكويك بنار الصبابة وأحرقك، أن أستشفي منك وأدمنك، أن أكون بلا أنت، وأن أكمل عمري معك.

حين نصنع بؤسنا

الحنين، ابن المطر، يولد في ردهات الذاكرة قسرًا، لتلد معه كل الصور، وكل الذكريات التي تأبى أن تضمحل، وإن علاها غبار الزمن، كيف للحنين أن يفعل بنا ما يفعله، كيف له أن ينعش فينا ما ظنناه انبرى واندثر.

ها هو شباك غرفتي يعانق ذلك السيل المنهمر من السماء، وبخار كوب الشاي يرسم خطه الضبابي المتصاعد إلى السقف.

أصوات تتعالى في رأسي، صوت أمي الحنون يوقظني للمدرسة، وصوت أبي الذي يهمّ بالخروج للعمل، صوت أخوتي الصغار متحلقون حول صحن الزيت والزعتر، يأكلون، يتشاجرون، ويتشاكسون، يختلط عليك أمرهم الممزوج بين الضحك والشجار .

صوت جدتي المرتجف الذي يتمتم بالتسبيح والاستغفار عقب كل صلاة، (شاشتها) البيضاء، وجدائلها الحمراء المسرحة بعناية، رائحة القرنفل الذي يفوح منها عطر يقبع في جيوبك الأنفية لتصبح جزءًا منها، تتوحد مع خلاياك العصبية، حتى إن شممتها في مكان آخر، استحضرتك صورتها كاملة، مسبحتها، سجادتها،

تمتماتها كلها تكون حاضرةً في مخيلتك حين تشم رائحتها الفريدة في مكان آخر.

حكاياتها الفريدة، وأحاديثها الجميلة، حين يسدل الليل جدائله السوداء، تنادينا فنتحلق حولها في بضع ثوان، حين تقول لنا : " تعالوا أخرفكم خريفة الغولة" ، كانت تلك الحكاية هي أجمل حكايات الرعب، رعب لذيذ، تتوالى الحكايات، حتى إن وصلت لقصة " أبو رجل مسلوخة " تسمرنا مكاننا، ليتها تعود هي وهو ! أذكر كيف كنا ننام اصطفافا جانب بعضنا البعض نتسامر، حتى ننعم بالدفء ويغلبنا النعاس، تنام جفوننا وتستيقظ أحلامنا، أحلامنا الوردية البريئة التي لم تلوثها بعد تقلبات الزمن وأحواله، ولم تقتلعها زوابع التغيير، كنا ننعم بليالي هنيئة تعانق أنفاسنا الهادئة الحالمة بعضها البعض، في غرفتنا الصغيرة .

طعم البطيخ في حلقي مختلف، كيف لشيءٍ متكررٍ أن يبق عالقًا، كيف له أن يتميز هل لتحلقنا حوله أن يصنع له طعما آخر، أم أن ذلك الزمن بكل ما فيه كان مميزاً وفريداً .

طعم الخبز كان مختلفا، ما زال ذلك الفرن الصغير في إحدى زوايا البيت شاهداً على كل رغيف خبز فيه، شاهد على صواني

الحلوى التي كانت تخبز، نشم رائحه العيد حين يخبز كعكه، تشخص أبصارنا نحوه، أقراص الزيت والسكر، كل ...شهود عليه.

برامج الأطفال التي تضج براءة كنا ننتظرها بفارغ الصبر، برامج ذات معنى وهدف، قصص ذات أثر، تركت فينا إلى يومنا أثرًا لا ينمحي ،

"ما أجمل أن نكون في أمن وسلام، الخير للجميع والحب للجميع" ،....ياه يا سنان! أتظن أن الخير والحب مازال كما كنت تريد، لا أظن!

حين كانت فيروز تغني، يملأ صوتها آذاننا، مذعنا ببداية نهار جديد، صوتها حين يعلو ويهبط، حين تلتقي وحين تفترق، ينصهر في قوقعتنا أينما اتجهْت، في الباصات والدكاكين والشوارع، مع برد الشتاء وحرارة الصيف، حين نحب وحين نكره، حين نتفاءل، وحين يعتلينا التعب، كان صوتها صوت بدايات، ترى هل تبدل صوتها، أم ذبلت أسماعنا، أم أننا ما عدنا نشعر بالبدايات، فكلها تتشابه، وتغرق هي ونحن في براثن الروتين.

تستحضرني كل الصور، وتلك المشاعر النقية التي عشناها في طفولتنا، لحمتنا براءتها ، صحن الزيت والزعتر، رائحة الخبز، مسبحة جدتي، ثوب أبي، أبو رجل مسلوخة والغولة!

ياااه ! لو تعطلت عجلة الزمن هناك، وتوقفت جميع الصور على تلك المشاهد والصور، وبقيت بألوانها ونقائها، لكننا كبرنا ، وأصبح لكل منا حياة وعائلة، سنة الله في خلقه، ويبقى السؤال هل سيكون أولادنا كما كنا عليه !

تبدلت الحياة، صور الأمس تغيرت، في زمن التطور الأرعن الذي نعيشه، في زمن يكون هاتفك النقال وبعض تطبيقاته هي عالمك ، يجعلك تتوحد مع الكل وحيداً راكنا في زاوية الغرفة بجانب شاحنه يلعب (الببجي) يكلم نفسه، يكلم الآخرين دون أن يعايشهم، زمن رقمي وهمي بامتياز، عالم افتراضي مشاعر بلا مشاعر .

ما عادت العائلة كما كانت، كل في غرفته، يتكلمون في تطبيق أخرس أبكم، نتناقش، نتكلم، نحب، نكره، كله هذا بحروف خرساء .

علاقاتنا باتت هشة، يحكمها زر، كثير من تلك العلاقات انتهت بزر، زر "الحظر" وكأن مشاعرنا باتت بين طلب مراسلة وذلك الزر الأحمق "البلوك" كما يشيع مسماه.

مازال صوت المطر ينهمر، تن تن....صوت إشعار (الفيس بوك)، فلان علّق، فلان يشعر بالاستياء، وآخر يصدر نكت باردة، وذاك

ينظر وآخر ينافق، هذه حامل وتلك تلد في غرفة الولادة، انكشفت بيوتنا فما عادت مستورة.

مسكت جهازي الخلوي، هناك رسالة (ماسنجر) يااااه ! إنها صديقتي، كم مضى من وقت لم أكلمها فيه، حسنًا سأرد عليها برسالة اطمئنان، ضحكت بنفسي على نفسي، لعلني أصبحت كما الكثير، أسير هاتفي الرقمي، ولسان حالي يقول :إن كنت أنا بهذا العمر ونالت مني (التكنولوجيا)، وأصابت مني ما أصابت، لا لوم إذن على من يعايشها منذ نعومة أظفاره !

ضحكت، ووضعت الهاتف، اااه ! تذكرت سأكتب إلى صديقتي : (وأنا بخير ...اشتقتك !).

***

حين نتجرع الحياة علقمًا

في كل منا زاوية مظلمة لا يعرف كنهها إلانا، نجمع كل ما نحس به وندفنه في تلك الزاوية، فغي كل منا مقبرة، وفي كل منا جنائز تشيع بصمت، حتى نشعر بالنهاية أننا خلقنا للبكاء، نتشبث بالسعادة فتتفلت منا، نستجمع قوانا لنقاوم، فتخور قوانا عند أول منعطف، وتهون عند أول خيبة، وندفن كل ما نحس به في تلك المقابر الحية، ونستمر بالابتسام أمام الناس وقلوبنا جوفاء.

في تلك المقابر ينعق طائر النحس مرارا، وتحوم فيها أرواح من زرعوا حزنهم فينا، وتصدح صلوات صموت، وتقاد شموع فيها ولكن بلا نور!

نبكي ذواتنا وتبكينا، تتقلص أمانينا حتى تضمحل ونشعر في كل مرة ندفن فيها خيبة، أن العالم ينكمش كثقب إبرة، وأن خيباتنا تضرب جذورها فينا، حتى تصدعت أرواحنا وتمزقت، وأن انكساراتنا وانهزاماتنا أمام ذواتنا، هي من صنعتنا ووضعت خطوط شخصياتنا العريضة، حتى بتنا أشخاصا غرباء لا نعرف أنفسنا، ولا نعرف حتى ماذا نريد أن نكون.

صورنا الخارجية أصنام محنطة، لا ترى فيها إلا أظلال الوجع، تعابيرنا الجوفاء باهتة، ترى الحزن متنكرا فيها بزي مهرج حزين!.

سماءانا مظلم، كليلة شتاء بائسة، نسجت فيه الغيوم فيها بساطا أسودا، ونثرت نجومها المنطفئة فيها، والقمر قنديل شاحب، ينير بلا وهج .

في تلك المقابر، نرى أحلامنا الموءودة، تندب حظها كثكلى تبكي طفلها المقتول دمعًا أسودًا، ترى الأماني صرعى على ضفاف اليأس والخذلان.

في تلك المقابر نرى ذواتنا المنسلخة منا، تحلق فيها بلا غاية، تتيع فيها كعشواء هدها المرض تتخبط في البيداء يمنة ويسرة، ولا تصل بعدها إلى هدف او نتيجة، هي ذواتنا التي انشطرت منا قصرا معلنة براءتها منها.

كم من حلم وئد حيًا، وكم من وجع كتم قصرًا، وكم من ذكريات تتمنى أن تعود .. ولا تعود.

تتوشح بالسواد ذواتنا، معلنة حفل تأبين، نشعل شموع الخيبة حدادًا على كل ما فات وكل ما سيفوت، وكل من دفن في المهد حتى قبل أن يكون.

في كل مرة نتلاشى بقدر الخيبات وحجم الهزائم، نبدأ بالتخلي عن كل شيء حتى نتخلى عن شغف الحياة ونموت، ونحن على قيدها.

لا شيء يستنزف ربيع العمر إلا الانتظار، وها أنا أنتظرك، قابعة على مقعد العمر في محطات الرجاء أنتظرك، لعلك تعود، وتضمد بقربك جروح القلب المتأجج بك، وتعيد للوجه الضامر بهجته.

حين تعود، سيورق الأمل زهورًا يانعة، وتعود لوجهي ضحكته المهاجرة، وتتلون المساءات بأقواس الحب الملونة، بعد فصول القفر البائسة.

حين تعود سأزرع في حديقتي زهور الحب، وأرويها بدمعي الذي انسكب لوعة على فراقك، وسأعيد لوجهي البائس فرحته، وألون لوحات الحب التي صنعتها لك بألوان الربيع الأخضر، وسأضحك حتى أثمل، فحبك خمرتي .

حين تعود سأرقص وأرقص، فحبك موسيقتي الصاخبة التي تراقص أنوثتي المرهفة.

حين تعود، سأعانق النجوم والغيمات، وسأغرق طيور الحب بالقبلات، وسأجمع الفراشات، وألملم حبات الندى من البساتين.

حين تعود، سأصنع من الورد فستانا وطرحة، وسأرسم على باب غرفتي قلوبا حمراء، وأغني حتى تزهر حنجرتي بك، وتورق حبات الكرز على الكلمات، وأنقش أبجدية الحب على جدران العمر، وأفتش عن تاريخ الحب في الكتب، لأقبل كل تاريخ جمعني بك.

حين تعود، اااه متى تعود، كل الأماني متعلقة بك، مالي لا أرى للحياة بريق إلا بك، مالي حين أذكرك تبكيك الذكريات، وتسري في مخيلتي قشعريرة الوجع، وأرى الألوان بلون السواد الأرعن.

حين تعود سأنثر الحب في البساتين، وأعانق كل الفراشات، وأجمع الدحنون وأصنع منه تاجًا، فأنا حين تعود سأكون أميرة، وتكون أنت يا غائبي أمير.

مالي أرى ناطور الفراق هناك، قادما نحوي، رافعا يديه مذعنا بالرحيل، وأن الوقت الذي أنتظرك فيه، شارف على النهاية، مالي أرى كل الأماني التي أحلم بها، تشيع نفسها الآن، وتصنع من ساعات الانتظار تابوتًا أسود، وتصنع من أحلامي العالقة في مخيلتي مهبطًا لا يؤدي إلا للبكاء.

لا تعلم حجم الفراغ الذي خلفه غيابك، وحجم الألم الذي بات يسكن روحي، لا تعلم كيف أصبح العالم حولي كرة مفرغة بلا

قيمة، تدور في الفضاء بلا هدف أريد أن تعود، أرجوك أن تعود، وسأنتظرك حتى لوكان الثمن عمري الذي ضاع في انتظارك، وما تبقى لي من عمر، هو لك، فأرجوك أن تعود.

***

ما أشد وطأته الذي أبكى يعقوب حتى ابيضت عيناه، ينثر الفؤاد شظايا تنعى الحب الذي كان، تنعى الذكريات التي كانت، تنعى نفسها حين كان الفؤاد حيًا، وها هو ذا ينبض بلا روح، ويبث أكسجينه إلى الجسد، لكن بلا حياة.

الفراق الذي يجلد الروح ويعذبها، يكويها ويوجعها، تجعلنا أرواحا تائهة في ذواتنا، هو غروب لا يليه شروق، وشراع مكسور في سفن الحكايات، هو ظل مبتور، ينزع من عيوننا البريق، ومن القلب البهجة، ليبدله سكونا وكآبة.

حين قررت الرحيل، وكتبت لي تلك الرسالة اللعينة، كجبان خاف من المواجهة، ضحكت حتى ابتلت حروفك التي أقرؤها بالدموع، يا لها من رسالة مضحكة.

ضحكت وضحكت، ليتك تعلم حجم السخافة التي كنت أشعر حين كنت أقرأ، ألهذه الدرجة يمكن لك أن تشق روحي بتلك

البساطة؟، وأن تخط تلك الحروف البلهاء التي لا أجيد ترتيبها لأجد كلاما أفهمه، ولا أجد.

رسالتك البلهاء تبلغني أننا سنفترق، أيكون الفراق بهذه السهولة، يخط بجرة قلم، وببعض السطور الغبية، وببعض الفواصل بين الكلمات.

فررت أنت الرحيل، أي حب هذا الذي تدعيه، وأي طريق تريد مني أن أسلكه، كيف يمكن لي أن أبتر هكذا بلا ذنب، كيف يمكن أن أسير في طريقنا الذي رسمناه معا وحدي، كيف يمكن لي أن أعود أدراجي في هذا الطريق ووحدك من يعرف حدوده.

كيف يمكن لك أن تفعل بي ما تفعله، أبحث عن كلمات الحب فيها فلا أجد، كيف أصبحت بخيلا هكذا.

جلست على طرف الأريكة، وقد انكمشت رسالتك في يدي ككرة، ربما لم أستوعب بعد أن ما تريده مزاحا أو كذبة نيسان، نيسان أين نحن منه؟!.

أتراه يمازحني، أتراه يختبرني، جعلتني في دوامة الحب كشراع بلا هوية، كبوصلة تدور وتدور بلا اتجاه، تائهة أنا.

كيف لي أن أكون حدثًا عابرًا في حياتك هكذا، كيف يمكن لي أن تصيرني ذكرى كأنها لم تكن.

ربما علينا أن نفترق، هززت رأسي مرارا، علينا أن نفترق، كم من وجع يضمده أن نحتويه، وننثر الملح عليه كي يبرأ.

مالي أرى نفسي تنشق عني، تراودني الذكرى طيوفا عابرة، تسكن الأشباح ذاكرتي، وخيوط الوهن تنسج في مخيلتي كخيط عنكبوت واهن.

أبحث عن ذاتي بين الوجوه فلا أعثر إلى على الضياع، أنسج أمنياتي على جدران الحياة، فتنبذني.

لملمت كل انشطاراتي، وبعض هزائمي، وكل شتاتي، وتركت روحي معلقة على ضفاف الحنين أطيافا مهاجرة.

تنشق روحي شطرين حين أذكرك، أستنشق الهواء قصرا كي أعيش، ولا أعيش!.

ليتني أقتص من شريط عمري ذكراك فلا تكون، وأبيد جيش الصور المزروع في مخيلتي، وأنسف كل الحكايات التي كانت معك، كل القصص التي كنت أنت بطلها الأسطوري، وفارس أحلامي الذي ترجل في حكايات ألف ليلة وليلة.

ليتني أعيد كل الكلمات وأفككها حروفا بلهاء بلا معان، وأغلق أذني عن كل حروف الحب المزعوم الذي أغرقتني به، وأنهر قلبي كلما نبض بك.

هل أبكي على ما كان أم أضحك على الآت، هل أندب حظي الأرعن أم علي أن أتماسك امرأة قوية لا يهزها رحيل.

علي أن أختار فالأمر لا ينتظر، بعض القرارات مصيرية في حق أنفسنا، علي في هذه اللحظة أقرر قبل أن أنهار فلا أستطيع النهوض.

نظرت إلى رسالتك المنكمشة بين يدي، ضحكت، وبكيت، رفعت رأسي كشجرة تقاوم الريح، عصف بداخلي الكبرياء، وعند أول سلة للقمامة وضعت رسالتك الغبية فيها،

بعض الوجع يبريه سلة قمامة..!

***

ويحدث أن نتقوقع على ذواتنا ننكمش كحلزونٍ كهلٍ ما عاد يجديه الاختباء، نعلن انهزامنا في كل معارك الحياة قبل أن نخوض غمارها ، نشعر بأن كل شيء حولنا يدعو للتوحد، هي الحياة بكل تداعياتها، نزهد فيها وتزهد فينا.

لم كل هذا الاكتئاب؟، أتساءل أحيانا، علني أرى في ردهات نفسي إجابة، ولا إجابة!

بت أشعر أن الحياة زوجة أب تصب سخطها على أولاد ضرتها، ولا ذنب لهم! لم يختاروا ذلك الوضع، فلم يحدث كل هذا العذاب!؟

سريري بات هو الوطن، متوارٍ فيه بلا حراك، لا شيء سوى التفكير، لا شيء سوى الألم.

أشعر أني وحيدة مع تلك الشوارع المكتظة بالبشر، كأنها خاوية على عروشها، ألم يعد عدد سكان الأرض رقما يعتد به!.

أشعر أن روحي قد أزجيت في سجن انفرادي، حين ترى تلك الكائنات البشرية تملأ شوارعنا، ولا ترى من بين تلك الوجوه إلا وجهًا واحدًا، هو في ميزان الحب كفته راجحة.

ليتك تدرك حجم الفراغ الذي أمر به الآن، حين قررت أنت الرحيل، وتركتني أتشبث بك كطفلٍ صغير يتشبث بأمه.

أبكيك بصمت فبعض المشاعر لا تجد لها أبجدية ، أكتم خيبتي فيك، كقنبلة صامتة، كصقر جريح يكابر، كزهرة خانها المطر، فلم تزهر.

حين تركتني أيقنت أن حبنا كذبة، وسعادتي معك سراب، وأن كل كلمات الحب التي غرقت بها، بحيرة صغيرة خلفها المطر ثم اختفت ، هي كلمات عابرة تنسى حين تقال.

حين تركتني أيقنت أن الحب عملة مزيفة، تشترى بها مشاعرنا، بثمن بخس.

أدفن رأسي تحت وسادتي، أبكي نفسي، وأبكيك، وأبكي كل ما كان وما فات، أبكي حبنا الذي بات حكاية قديمة، وذكرى أليمة، أبكي حالي الآن وبعد، كيف يمكن لي أن أكمل ما تسمى حياة وحدي بلا أنت.

بعض المشاعر لا تغسل إلا بالدموع، سأبكيك ونفسي حتى تنطفئ نار الصبابة في داخلي قسرًا، سأبكيك حتى يغيض دمعي وينضب، وتستهلك كل مشاعري ، لتصبح بعد ذكرى كلما عبرت في مخيلتي ضحكت! سأبكيك حتى أتخلص من ذكراك، سأبكيك حتى أكره نفسي أنني أحببتك!

أنظر في المرأة فلا أعرف نفسي، ما هذا الانعكاس الذي تعكسه، وجه أهيف تعلوه صفرة، تجويفان مزروعان في رأسي ككرتان هربتا من ملعبٍ صاحبها مخفق، أنف اعتلته حمرة البكاء، شفتان متشققتان كنهر حسر ماؤه، وتشقق مجراه، آثار البكاء خطت خطوطها على وجنتي، فبعض الخطوط آثار وجع.

أيستحق فشلنا في الحب كل هذا الوجع، أيستحق أن نبكي فشلنا في الرهان، أنراهن على قلب رجل!

ما هذا الذي جعل مني بقايا امرأة، أحبت فخذلت، ما الذي جعل مني صورة لا تنعكس حتى في المرايا، بت لست أنا، حتى بت لا أعرف نفسي، أيكون كل هذا الوجع في قصص الحب الفاشلة.

الآن فهمت لم خلدت قصص الحب القديمة، لم بقيت وبقي وجعها، بعض الوجع يسطر في كتب الحياة ويخلد، أينبغي أن نتوجع حتى نخلد!

أينبغي أن أصارع ذاتي فيك حتى أنساك، أينبغي أن أسابق الأيام حتى أنساك. ولا أنساك.

ما زلت أنظر في مرآتي، صنعت بأصبعي خطان متقاطعان فيها، أريد أن أنسف تلك الصورة المزجاة فيها، أريد أن أرى ذاتي القديمة فيها، حينها لم يكن حلًا إلا أن تنكسر، وها هي القطع الزجاجية المتناثرة على أرض غرفتي، تعكس صورتي الصفراء في كل شظية، يبدو لا خلاص منك!

❖❖❖

في داخلي مدن تحترق، و جيوش الأفكار تشن حروبا كبرى علي، وعجاج تلك الحروب

ينثرني رمادًا أسودًا بلا قيمة، تعصفه الرياح بلا رأفة.

في داخلي أنثى رمادية، لا دعني أقول أنثى بلا لون، أذكر أني كنت متوهجة كلون الورد ، كباقة جوري، كزهر دنون بكر، وها أنا الآن مريضة بك، صفراء شاحبة ككومة قش مزجاة بلا ثمن.

ما هذا الحب الأرعن الذي يحول النساء إلى لون لا يشبههن، تبا له، وتبا لك، وتبا لي لأني أحببتك.

أذكر أني كنت قبل أن أعرفك، أملك نفسي، وها أنا اليوم حين عرفتك أصبحت مقيدة، أي غباء الذي أنا فيه، الحب انطلاق كسماء بلا حدود، وها أنا أحوله سجن بلا قيود.

علتي معك سيدي أنني أحببتك أكثر، وعشقتك أكثر، وغيرت مساراتي إلى طرقك، مؤلم أن تنصهر مع أحد وتضيع حدود ذاتك كي ترضيه، وها أنا ضيعت ذاتي معك، وحتى بعد أن افترقنا، ما زلت أبحث عنها ولا أجدها إلا .....معك.

صيرتني أنثى بلا لون، حقلا نزعت خضرته، حمامة نتفت أجنحتها فلا تطير، صيرتني مسلوبة كأرض أقحلت فلا ترى فيها إلا أكوام الرمال المهاجرة.

صيرتني متمردة، أهاجم فلول الأفكار المندحرة كجيش بلا راية، كجندي بلا عتاد، أترى حروبا بلا عدة، وها أنا معك عزلاء بلا درع يقيني من كل تلك الغزوات الطاحنة في مخيلتي الآن.

الحب مهزلة، أرى نفسي فيه بلا شخصية، إمعة، أكون كما تريدني أن أكون، أصير ذاتي وفقك، أكون كدمية حسناء ولكنها... بلهاء.

أنا لا ألومك سيدي، ألوم نفسي فيك، أنا من صنعت من حبي لك قصورًا من رمل، ورأيت فيك شريكا أرى حياتي معه، وراهنت نفسي فيك وها أنا اليوم..... خسرت الرهان .

مسكينة هي الأنثى التي تربط أحلامها برجل، وجعلت منه عصا سحرية تخلق الأحلام تصيرها حقيقة، تستنزف أحلامها فيه ولا تدرك أن الرجال حقيقة، يدركون أن تلك التفاصيل سخيفة إلى الدرجة التي يضحكون منا عليها، ويرون أن أحلامها تلك أشياء هامشية ليس لها مكان في حياته التي يسميها عملية.

بت أضيق ذرعا بنفسي، لم علي أن أخسر نفسي أكثر كي أربحك، لم علي أن أصارع الريح حين تعصف بي ولا أقاوم.

سئمت أن أكون امرأة عابرة، تضعني في دفتر ملاحظاتك، كموعد يحتمل التأجيل، سئمت ذلك الدور الثانوي الذي أنا فيه، أكره أن أكون كلقطة فلم عابرة، تنسى حين ينتهي.

أنا لا أرضى إلا بالبطولة.....

لم علي أن أقدم التنازلات، أن أرضى أن أكون خيارا يحتمل الحذف، لم علي أن أنصهر كقطعة جليد ، لا أدرك أنني كلما اقتربت منك أصير نفسي وفق ما تحب، لم علي أن أكون كما تريد أنت، لم أرضى أن أكون انعكاس أفكارك، وألغي نفسي .

أريد أن أنسلخ منك، أريد أن أعود لنفسي لأعقد الصلح معها وأعاهدها أن تتوب، فحبك ذنب، أريد أن أتطهر منه، وأستغفر لنفسي علها تغفر لي ما فعلته فيها من أجلك.

أريد أن أقف ضد نفسي ضدك، وأسترجع كل ما خسرته معك، وأكون أنا ، لا أريد أن أتصنع لأرضي غرورك النرجسي، أريد أن أستجمع قواي وأعيد ترتيب الأولويات عندي فقد كنت أنت أولى أولوياتي بل كنت..... كل الأولويات!

أريد أن أتنفس حرية، أن أقبر بيدي أيام العبودية، فحبك استعباد واستبعاد، حبك استيطان، عدوان بلا عنوان!

حبك حرب شعواء، تثير في التمرد والتأجج، تقصفني بلا رأفة، تصيرني كتلة من نار، أرض ملغومة، فرس محمومة، خيمة حرب بلا أوتاد، رمح بلا سنان، وفيك صيرتني أسيرة.

حبك قصيدة شعرية، رواية منسية، حكايات حب رعناء، أرض بلا فضاء، حبك سيدي قضية!

حبك خيبة وانهزام، راية سحقت في الزحام، حبك غزو لا ينشد السلام، وصفير إنذار لا ينذر إلا بالاستسلام!.

كم هي غبية تلك الأنثى التي تشن حروبا على نفسها ولا تعلم أنها هي الخاسر الأوحد، وأن العدو الوحيد لها هي ذاتها التي تقبل أن تتقلب بقالب الحب المزعوم، تتشكل به كما يشاء، تتلون بألوانه القاتمة التي لا تنعكس منها إلا رائحة... الخيبة.

ما زالت حروبي الضروس، وما زال جيش الأفكار تشعل فتيلها الملتهب بك، وما زلت أنا أرفض أن أتخذ قرارا يحسمها، وما زلت أشن حربا على تلك الحروب..... ولا نتيجة.

تمعنت في التابوت طويلا، وعيناي تحارب الدمع مرارا، صوتك الذي يعيث فسادا في مخيلتي يربكني، بعض الذكريات التي تحوم في رأسي تعاندني فلا تهدأ.

أشعر بالاختناق لا أكاد أتنفس، أريد أن أدرك حقيقة أنك لن تكون، وأنك ستغادرني إلى الأبد، وأنني سأكون في منتصف الطريق وحدي.

جسمك الذي كان يفيض حرارة ودفئا أضحى باردا كالثلج، عيناك التي كنت أقدس النظر فيها ستكف النظر عني إلى الأبد، شعرك الأشيب الذي لطالما غازلته بيدي سيوارى بلا عوده.

سأفتقدك....

سأفتقد خط سجائرك المخملي الذي يخط في قلبي قبل أن يعانق سقف الغرفة، لا تعلم كم كنت أعشق رائحة التبغ في ملابسك، كم كنت أعشق منظر المنفضة الممتلئة به، وكم كنت أعشق لون الغرفة حين كنت تشعل سجائرك، فتضحى الغرفة غيمة بيضاء، ممتلئة بأنفاسك.

سأفتقدك...

سأفتقد صوت شخيرك، هل تضحك.... نعم صوت شخيرك الذي كان يهدر في أذناي كخرير جدول، وبعض تمتماتك الحالمة، كنت تتكلم وأنت في عز نومك .....لا تنكر!

سأفتقدك...

سأفتقد ذلك البريق اللامع في عينيك حين تراني مقبلة نحوك، كم كنت أحب النظر إليهما وهما تتراقصان فرحا بي، كم كنت أعشق ذلك العبوس الذي يخط خطوطه على جبينك سأفتقد شرار عينك المتطاير حين تغار!.

سأفتقدك....

سأفتقد صوت المفاتيح التي تهتز طربا لخطوات أقدامك، لصوت دندناتك حين تصعد السلم، لصوت تنفسك حين تتعب من الصعود، صوت الباب حين تدخل بيتنا الذي..... سيفتقدك.

آه لو تعلم حجم الدمار الذي ألحقه غيابك، وأسراب الذكريات تحتلني الآن بلا رحمة، وزوابع الحنين الجارف تجرفني كرمال الصحراء الهاربة، يتسكع بي الحنين كرجل ثمل أتعبته الذكرى، وراح يتسكع بلا وجهة.

لم غادرتني الآن، لم علينا أن نفقد كل ما هو جميل بسرعة، لم علينا أن نتجرع ألم الفقد كعلقم لا يطاق، لم غادرتني وقد كنت

أرى جمال الحياة فيك، وأصنع من لون عينيك قوس قزح أتأرجح به.

لم غادرتني وتركتني للأيام وحدي أكابدها بلا سند، كنت الكتف الذي أسند رأسي عليه حين تميلني الرياح عندما تعصف بي، كنت أنت الربيع الذي أنتظره حين تمحل بي الحياة وتزجني في صحراءها المميتة.

لم غادرتني وتركتني ..

ها أنا أتوشح السواد حدادا عليك، كيف للون أن يصنع فينا تلك الكآبة وهذا الحزن يجعله يتوحد مع مشاعرنا كمطر أسود يحول كل ربيع فينا إلى رماد.

كم أمقت هذا اللون، أريد أن أبقي ذكراك ألوانا ربيعية، قوس قزح مخملي.

فقيدي...

كم هو قاس أن تتحول المسميات هكذا، أبهذه السهولة يمكن أن نصبح بلا أسماء حين نموت، كيف لاسمك أن أمحوه من ذاكرتي وقد كنت وطن، أيمكن أن تنسى الأوطان.

كيف أناديك....!

سأناديك حلما غادرني ولم يكتمل، جناحي المركون بعيدا في مكان قصي، نصفي الآخر الذي انشق مني بلا إرادة، أنت وجع لا يبرأ، وجع ينخرني كقطعة خشب اجتثت بلا شفقة.

أنت ذكرى لن ترحل....

رويدك أيها التابوت، تمهل...

دعني أشم بقايا عطره العالق في أرجائي، دعني أتنفس بعض ذرات الألم معه قبل أن يرحل، تمهل لا تتعجل، دعني أعانقه، دعني أجمع باقة من الغصات ،أزرعها فوق جبينه الغض، دعني معه أخاطب روحه، دعني أناجيه، وأبث حنيني المنسكب من ذاكرتي ليرويه.

أيها التابوت ...تمهل

دعني أسرق من شعره خصلة، وألامس بعض أصابعه الباردة، وأملأ الكون صراخا صامتا، وأضع على وجنتيه قبله!

أيها التابوت، تمهل!